

@ketab_n
Follow Me
31.12.2015
غسان كنفاني
العاشق

رواية

غسان كنفاني

العاشق

منشورات الرمال



مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013
الطبعة الثانية 2014

ISBN 978-9963-610-86-0

نشرت هذه الروايات الغير مكتملة في طبعتها الأولى سنة .
صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
تصميم الغلاف ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف لوحة لغسان كنفاني



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

المحتويات

العاشق، برقوق نيسان، والأعمى والأطرش، روايات غير مكتملة لغسان كنفاني

العاشق

في البدء لم يعرف أحد في الغابسية كيف جاء قاسم إليها وسكن فيها. دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل وصار لتوه شيئاً من أشيائها الصغيرة، ولكنه أبداً لم يستطع أن يكون من ناسها، ويبدو أنه هو ذاته لم يكن راغباً في أن يصبح كذلك. لقد تسلل إليها بلا صوت وبقي صامتاً طوال الوقت تقريباً، وهكذا فقد حرم الناس حتى من أن يجدوا فيه قصة يحكونها بعد أن حرمهم من أية علاقة معه.

وفي الحقيقة فهم لم يروه تماماً إلا بعد مضي زمن طويل على قدومه، حتى إنهم تعرّفوا إليه عبر حكاية رواها لهم الشيخ سلمان، كبير الغابسية، الذي يملكها بأرضها وناسها ودوابها وزيتونها. «لو تعرفون ما حدث لقاسم هذا الصباح»، وهكذا عرفوا إسمه لأول مرة، ولكن قلة منهم استطاعت في تلك الوهلة أن تذكر ملامحه، المهم

أنه، لأول مرة، صار موجوداً فجأة، ويبدو أن حضوره بهذا الشكل على لسان الشيخ سلمان ربطه به إلى الأبد، ولم يعرف قاسم نفسه في حياته كلها رجلاً استوقفه إلا وسأله عن حال الشيخ سلمان.

لقد جاء قاسم في ديوانية الشيخ سلمان ذلك الصباح فجأة، ودون توقع، دخل إلى الناس مع إيقاع صوت الشيخ سلمان المهيب وسط الصمت الذي كان يخيم عادةً كلما تحدث، والحقيقة أن قاسم نفسه كان في تلك اللحظة جالساً بهدوء على كوم من التبن في الإسطبل ينظر بحيرة إلى قدميه وقد رفعهما قليلاً إلى فوق، وكان الشيخ سلمان يقول لزواره أنه صحا في الفجر فصلّى وكان المنزل صامتاً ومستغرقاً في النوم. أخذت كرسياً وخرجت، كانت السماء جداراً عالياً من البلّور النقي، بارداً وبعيداً، وكان الفضاء يشبه الدهان، وراء البيت سمعت صهيلاً صغيراً وصوتاً زاجراً، ثم رأيت رجلاً يطل من وراء الجدار مع الفرس.

كنت قد غسلت الفرس وسقيتها، وجعلتها تخب في الساحة الخلفية للدار كي تنفض النوم عن عضلاتها، وعرفت حين وقفت فجأة وصهلت أن الشيخ سلمان قد خرج من البيت، وحين صرت مع الفرس على زاوية البيت رآنا، فأشار لي أن أتقدم.

سألته إن كان معجباً بالفرس فهزّ رأسه وربت على كتفها ونظر

في عينيها وابتسم، عندها سألته عن اسمه فقال:

- أنا قاسم..

ثم سألته إن كان يستطيع أن يحضر لي فنجاناً من القهوة، فهزّ رأسه ونظر في عيني الفرس ورأيتهما يبسمان لبعضهما، ثم يسيران معاً دون أن يقود أي منهما الآخر.

وضعت الفرس في مربطها وأخذت بنّاً من داخل البيت وجمعت حطباً ومضيت في دورة واسعة حول الساحة الأمامية للبيت كي أتجنب المرور من أمام الشيخ سلمان، إلى أول الحقل. كانت ناراً جيدة.

وأخذت أراقبه من بعيد، عبر الساحة الأمامية، ينفخ النار ويهزّ فيها وفوقها إبريق النحاس هزّة العارف، كان رجلاً صلباً وقد رأيت عضلاته تحت قمبازه الرقيق تتكوّر مشدودة وهو يحني قامته الطويلة فوق النار، وبدا لي لوهلة، وهو محني فوق الوهج أمام صفحة السماء الشهباء، يشبه الحصان الفتي. وتساءلت: من ترى وجده وأعطاه عملاً هنا؟

وفي اللحظة التالية انتصب واقفاً فبدا أطول مما توقعت ولوّح بالإبريق، ثم بدأ يتجه نحوي، عبر الساحة... وكدت أنتصب واقفاً وأصرخ إلا إنني، قبل أن أتزحزح، كان الأوان قد فات، ورأيته

بأم عيني يدوس على الرماد الذي تخلف من نار ليلة أمس الكبيرة التي أشعلناها في الساحة، وقلت لنفسي: «إذن، فالرماد قد برد»، وتنفست الصعداء، إلا إنني فجأة رأيت الشرر يتطاير من تحت قدميه الحافيتين وهو يغوص في حقل الرماد الواسع، ولا شكّ أنني بدوت له مجنوناً وأنا أحدق فيه فاغر الفم، يسير بهدوء وثبات فوق النار.

لم أنتبه إلا حين خطوت الخطوة الأولى فوق الرماد. لقد بدا لي بارداً في ذلك الفجر المسالم، لم يخطر في بالي على الإطلاق أنه كان مجرد فخ ملعون، وأحسست بالنار تسلخ راحتي قدمي وكدت أسمع نزيز الدم ينطفئ بصوت مسموع تحت بدني، وفجأة رأيته ينظر إليّ بعينين مفتوحتين على وسعهما، كان إبريق القهوة الممتلئ حتى حلقه يرجف في يدي رجفات صغيرة. إنه من سوء الطالع أن تسقط الركوة من يدي وتندلق القهوة في ذلك الفجر وجهاً لوجه أنا والشيخ سلمان وحدنا في هذا العالم.

وظلّ يتقدم، كأنه يمشي على عشب. لقد هزّني الرعب وسمعت نبض قلبي جنباً إلى جنب مع الفحيح المكتوم للنار الراقدة تحت قدميه الحافيتين، وقلت بيني وبين نفسي: نبي أو مجنون. إن ضوء الفجر جدير بأن يحبل بالأعاجيب، ولكنه وصل، ووقف أمامي

بالهدوء ذاته، فيما أخذت أحدق إلى قدميه، كان الإبهامان فقط يرتفعان عن التراب بحركة راجفة. سكب القهوة بثبات، ووضعها على الحجر المستدير إلى جانبي، وتحرك مبتعداً دون أن يوليني ظهره، وصرخت: قاسم! فوقف دون أن يقول شيئاً، وعدت أقول:

- ماذا فعلت بنفسك يا فتاح يا عليم؟

فنظر وراءه إلى حقل النار، ورأينا معاً دخاناً صغيراً يتعالى من الحفر التي خلفتها خطواته، ثم عاد فنظر إلى قدميه ثابتتين فوق التراب، ثم إليّ. وانتظرت أن يقول شيئاً إلا إنه فرش راحتيه محتاراً، وعاد ينظر إلى إبريق القهوة.

وكنت أريد أن يتركني أمضي إلا إنه ظل ينظر إليّ مستثاراً، ولم يكن لدي ما أقوله، فهو يعلم أنني لو تركت إبريق القهوة يسقط من يدي في ذلك الصباح الساكن، وأنا وهو وجهاً لوجه وحدنا في هذا العالم، لما تيسر لي أن أظل هنا لحظة أخرى، ولما تيسر لي أبداً أن أرى «سمرا» مرة أخرى، ولكانت قدماي، على أي حال، قد احترقتا أيضاً. مضيت إلى الإسطبل وأسقطت قدميّ في بركة شرب الخيل. في البدء انداحت حولهما غيوم رمادية أخذت تحمر رويداً رويداً وأحسست بلسع البرد يمتزج بأنين الجروح، ثم جاءت «سمرا» فشمّت الماء ونظرت إليّ برهة، ثم تقدمت فحكت أنفها الوردي

فوق كتفي، وقالت لي إن القروح لن تلبث أن تلتحم، فقمت معها إلى كوم التبن حيث جففت قدمي، وهناك تركتني أتمدد ريثما تجف القروح.

في تلك الظهيرة، وبعد أن ترك الزائرون ديوانية الشيخ سلمان، ولد قاسم فجأة، وصار يُرى في الغابسية هنا وهناك. ولم يكن بوسع الناس أن يحكوا عنه إلا قصة مشيه الهادئ على النار. لقد تحدثوا أيضاً عن قدميه الملفوفتين بكوم كبير من القماش المتسخ، ولكن فيما عدا ذلك ظلّ قاسم خارج حياتهم، وإذا كان قد دخلها لفترة قصيرة فقد خسر مقابل ذلك شيئاً عزيزاً عليه هو اسمه... ذلك أنه حين رويت القصة لأستاذ المدرسة في مساء اليوم ذاته، ضرب كفاً فوق كفّ وهو يضحك ضحكته الشهيرة التي تشبه غرغرة الإبريق وقال:

- هذا شيء لا يحدث إلا لعاشق.

وجامله الشيخ سلمان بضحكة مقتضبة عرف منها الأستاذ أنه مطالب بتوضيح، فمضى يقول:

- إن نار العشق التي تكويه من الداخل أشدّ حرارة من النار التي داس عليها، ولذلك لم يحس بها. إنه عاشق.

وهكذا فقد قاسم اسمه دفعة واحدة، وفجأة.. وفي الواقع كان

حضوره ذلك اليوم قصيراً جداً، ففور أن اكتشف الناس وجوده جرّدوه من اسمه فغاب مرة أخرى، ولكن بطريقة جديدة.

ولم أعرف ما حدث إلا في المساء، كنت واقفاً خارج الباب حين بدأ ضيوف الشيخ سلمان يغادرون، وفجأة قال لي صوت ما:

- ليلة سعيدة يا عاشق.

وضحك صوت آخر وراءه، ثم سمعت صوتاً ثالثاً يقول لي:

- يا عاشق.

وعرفت فوراً أنني فقدت الشيء الأخير الذي حملته معي من تلال ترشيحا.

❖ ❖ ❖

لا أحد، على أي حال، يعرف كيف ترتب الحياة نفسها... أحياناً يحسب المرء أن قصة ما انتهت فإذا بها تبدأ. إن مستقبل إنسان كامل تراه فجأة متعلقاً بحادث صغير لا قيمة له، إن عقدة المسبحة أصغر من حباتها، ولكنها إذا انفكّت كرّت ثلاث وثلاثون حبة، واحدة إثر الأخرى، وأحياناً ينحرف الماعز الأكبر في القطيع وراء قشرة برتقالة فيتبعه القطيع بأكمله، وقد يجتاز سياجاً فيشتبك الرعاة بالمزارعين ويموت ناس، وتفقد دواب، وتعقد ولائم الصلح، فيأكل فقراء القرية ومجانينها وأطفالها العراة وخيلها وبقرها، ويرى مدعو ما فتاة ما هناك فيخطبها ويتزوجها، وتنجب له أولاداً وبناتٍ يعيشون ويموتون ويمشي في جنازاتهم رجال لا يعرفونهم خطوات السنّة العشر ويتحدثون وقد يتفقون على شيء أو يتشاجرون.

والذي لا شك فيه أنه كان مقدراً لقاسم أن يمضي حياته كلها وراء بيت الشيخ سلمان يحادث «سمرا» وينام إلى جوارها فوق هسيس التبن لو لم يدس ذلك الصباح على الرماد الملتهب ويدخل، بخطواته الثابتة الجريئة، إلى رأس الشيخ سلمان وذاكرته، فحين كان الشيخ سلمان يستوي بمهابة في الحنطور صباح اليوم التالي مستعداً للعودة إلى بيته في عكا سأله القيّم على مزارعه أن يُعيِّن موظفاً جديداً يحمل الخضار على ظهور الحمير كل صباح إلى حسبة عكا بعد أن ارتكب حامد ذلك الحادث البشع: سرق حماراً وهرب بحمولته إلى مكان مجهول تاركاً الحمير الثلاثة الأخرى واقفة على عرض الطريق قرب مقبرة عكا إلى أن وجدها رجل بالصدفة.

وكان الشيخ سلمان على عجلة، شأنه كلما كان على وشك العودة إلى عكا، ولم يكن في ذهنه أيما شيء، فقال للرجل الذي كان يقف إلى جوار العربة:

- دع العاشق يتسلم الحمير.

وخب الحصان يجر العربة فوق الطريق المتعرج الموحل، وصهلت «سمرا» في الساحة الخلفية مدركة أنه يتعين عليها الانتظار حتى بعد ظهر الخميس القادم كي ترى الشيخ سلمان مرة أخرى، وأطل قاسم من وراء البيت ورأى الرئيس واقفاً ما يزال في

حلق الطريق الضيق فأحس فوراً بأن شيئاً رهيباً سوف يحدث، وفي اللحظة التالية تلاقت أبصارهما:

رأيت في عيني العاشق وميضاً مخيفاً، ولأول مرة أحسست بأن هذا الرجل المتين الصامت الذي جاءني منذ أسبوعين يستجدي أن أعيّنه حرّاثاً يخفي وراء جلدته شيئاً مخيفاً لا سبيل إلى نكثه، إنه نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك فإذا بك غير قادر على نسيانه، وبدل أن يتجه مثل كل الناس إلى الأشياء، تتجه إليه الأشياء من تلقائها. كانت قدماه ما تزالان ملفوفتين بكومين من القماش المتسخ وكان إذ يسير يباعد فيما بينهما وينفضهما نفضاً، إلا إنه لم يكن مضحكاً، كانت «سمرا» تسير إلى جانبه، وأنا لا أذكر أنني رأيت أياً منهما وحده منذ جاء إلى هنا. لقد وقف ينظر إلي من بعيد متوقعاً أن استدعيه، وحين أومأت له بيدي تقدم نحوي بثبات، وقلت له:

- فجر غد ستأخذ الخضار إلى الحسبة.

وكان ذلك ما كنت أتوقعه وأخشاه ولكنني حين سمعته ظللت صامتاً كأن الأمر لا يعنيني، فيما أخذت «سمرا» تنفض رأسها المتكبر بغضب، وأخذ الرئيس ينظر إلي منتظراً جوابي، فيما ظللت واقفاً أنظر إليه.

وبدا لي أنه لا يريد، فأفهمته أن كل الحراثين يتمنون أن تكون لهم مثل هذه المهمة، فهي مريحة ومربحة، وتحمل صاحبها مرة كل يوم إلى المدينة، وأن الشيخ سلمان اختاره من بين الجميع لهذا العمل وعليه أن لا يخيب أمل الرجل فيه.

واستدار ومضى وتركني مع «سمرا» عاجزين عن قول أيما شيء. كان يبدو أنه يحب وظيفته بلا حدود، ويسعده أن ينقل الأوامر والطلبات التي يعرف أنها لا ترد، كان معروفاً هنا بسلطته القوية وعناده المستمد من دقته في تنفيذ أوامر الشيخ سلمان وحرصه عليها، والواقع أنه لم يكن يحس بأنه إنسان آخر غير الشيخ سلمان، ولذلك فحين يكون الشيخ هنا فإنه يختفي، وحين يغيب الشيخ يبدو في كل مكان في كل الأوقات. وكانت «سمرا» تنظر إليه محتارة وهو يدق بحذائه الثقيل الساحة الأمامية لبيت الشيخ سلمان متجهاً نحو الحقول، وحين غاب استدرنا وذهبنا إلى الإسطبل لنلقي نظرة أخرى على الحمير.

لقد كرت المسبحة فجأة بالطريقة التي كان يتوقعها قاسم في أعماق نفسه دون أن يقدر على تحديدها بالضبط: وصل إلى عكا في الصباح، وقبل أن يدور حول الساحة متجهاً إلى الحسبة في آخر حديقة البلدية التي تصفر فيها أوراق الكينا زعقت قربه سيارة،

وقرقعت أصوات الأحذية الثقيلة وأصوات أعقاب البنادق المكتومة، وخشخشت القيود، ووجد نفسه محاصراً فيما أخذت الحمير، وقد فوجئت، ترتد نافضة أعناقها الثخينة وتصدم بعضها بعضاً، وأطبقت الأيدي على جسده من كل ناحية، ودفع دونما اتجاه مرتين أو ثلاث مرات.. إلا إن ذلك حدث وكأنه كان يتوقعه بالتفصيل تماماً، فلم يقاوم، والواقع أنه كان يساعدهم بطريقة ما، فقد سهّل على العسكري الذي كان أكثرهم حماساً، ربط القيود حول معصميه، وتقدم نحو السيارة من تلقائه وصعد إليها دون الإستعانة بأيما شيء، وألقى نظرة كسيحة على الحمير وقد ظلت واقفة تنفض رؤوسها باحثة عن اتجاه ما.

وحين شقت السيارة طريقها بين الناس الذين تجمعوا نظرت قبالتي، وكنت أتوقع أن أراه هو ذاته كأن ذلك كان شيئاً مرسوماً منذ ولدت، وتلاقت نظراتنا.

كان يبتسم ابتسامة الرجل الذي انتصر أخيراً على غير توقع منه. اسمه الكابتن بلاك، وقد عطلت أنا بلا شك صعود رتبته ثلاث سنوات كبيرة، بالإضافة إلى المرارة التي سببتها له طوال ذلك الوقت الطويل. نظر إلى قدمي أولاً وهو ما زال يبتسم خارجاً من كابوس لا يتصوره العقل، ثم إلى صدري، ثم إلى عيني مرة أخرى، ثم وجد

الكلمة المناسبة فقالها من بين أسنانه:
- وأخيراً يا عبد الكريم!
وفي ذلك المساء قالوا في الغابسية:
- لقد كان العاشق مجرماً خطيراً اختفى هنا فترة من الوقت وخدع الرئيس والشيخ سلمان وكل شيء والحمدالله الذي جعلهم يمسكونه قبل أن يرتكب جريمة أخرى.

وفي الصباح الباكر وصل الشيخ سلمان إلى الغابسية على غير توقع من أحد. كان وجهه مضرجاً بالغضب، وكان ينتفض، وحين أمسك الرئيس بلجام الحصان قفز الشيخ سلمان بفتوة شاب من مقعده وأخذ يركله. وعرف الرئيس فوراً أنه سيدفع غالياً ثمن إهماله في التقصي قبل أن يقبل الموظف الجديد، فترك المكان مسرعاً وأخذ يعدو.

وأكمل الشيخ سلمان خطواته الغاضبة إلى البيت، فيما شبت «سمرا» على قائمتيها الخلفيتين وأخذت تصهل صهيلاً ممطوطاً كأنه النواح. مجرم في منزلي، محكوم بالإعدام. وقال له ضيوفه مهدئين:
- ولكنه وقع أخيراً في جزاء أعماله..

وضحك الشيخ سلمان بمرارة وأخذ يهز رأسه. كلا. لم تنته قصته، العاشق هذا، قاسم، عبد الكريم. الشيطان ذاته. سيعتقد

الإنكليز أنني كنت أخبئه هنا.. من يصدق أن الشيخ سلمان لم يكن يعرف؟ لعنة الله عليك يا رئيس يا مجنون.

ثم حلف الشيخ سلمان يميناً بالطلاق أن يرمي الرئيس بالرصاص إذا رآه في الغابسية، من هنا إلى الأبد.

أما قاسم فقد وضع في سجن عكا، في الغرفة رقم ٣٦٢، وصار اسمه منذ ذاك:

السجين رقم ٣٦٢.



العتبة ترتفع ثلاثة أشبار، وفوقها يلامس كعب الباب الحديدي الأسود البلاط الرمادي الداكن، طول الغرفة عشرة أشبار وعرضها عشرة أشبار، أما سقفها فيرتفع دون حساب، وفي أعلاه تنفتح كوة صغيرة ينبثق منها قش غاضب. إنه موسم الإخصاب عند السنونو، ولكنه لا يدخل قط. رأسه فقط يبدو لوهلة مغطى قفاه بالضوء، وحين يرف منطلقاً، بين الفينة والأخرى، تسمع الزنزانة صوت الفرح لحظتين خارجتين عن العقل. الجدران من الحجر الوحشي، منقور وملطخ ومحطم، ولكنه لا يعبّر عن شيء. إنه تاريخ الأظافر وأطراف الصحون والملاعق حين تضحي عند الحبيس كل أدوات فراره المهيض. رجال جاؤوا وحاولوا ومضوا أو أصيبوا بالجنون، وكان السقف دائماً، أمام عيونهم، يعلو يوماً وراء الآخر، وكانت الأرض تنخفض تحت العتبة لحظة وراء الأخرى.

في اليوم الأول أخذت أعوّد نفسي على ذلك الشيء الرهيب: أن لا أحسب أنني في قاع بئر سحيق، كلما نظرت إلى السقف ارتددت لتوي إلى اللحظة الأولى التي وطئت فيها هذا المكان. جاؤوا بي من الساحة، وصعدت ثلاث درجـات ومشيت في ممر طويل ضيق ومنبسط تماماً، لم أنزل درجة واحدة. الغرفة إذن في مستوى الأرض وليست بئراً. ولكنني كنت أهوي من جديد كلما نظرت إلى السقف والجدران والعتبة، ومن جديد أعود إلى البدء في انتفاضة الفرار التي لا تعوض. حين جيء بي إلى هنا لم أنزل درجة واحدة.

ظللت واقفاً فترة مديدة من الزمن كأنني جدار خامس. إن الإنسان لا يمكن أن يكون إلا محصلة تجاربه وهو يفترض دائماً أن الأمور ستعبر، ورغم ذلك يعتبر أن اعتيادها واجب لا فرار منه، جربت وضعين أو ثلاثة أوضاع لنوع مريح من الاستلقاء، وأخيراً وجدت الطريقة التي صار يتعين عليّ منذ الآن أن أقبلها وحدها، حالة للنوم، وحين استلقيت على ظهري واضعاً رأسي في الزاوية كي أكسب شبراً جديداً داهمني ذلك الشعور الذي كنت أعرف أنه ذات يوم سيقتحمني كالسيف: انتهى الأمر أخيراً يا عبد الكريم. دارت الزوبعة دورتها الغاضبة ثم صدمها الجدار فسقطت كالخريف. انتهى الأمر، كل دروب الهروب لا تؤدي إلا إلى العقاب، بطريقة أو بأخرى.

كانت الجريمة في ذاتها عقاباً، كان الاختباء عقاباً، كان الإنتقال من عبد الكريم إلى قاسم عقاباً، كانت صهوات الخيل في تلك الليالي الجليدية التي لا تنتهي ولا تبدأ عقاباً، كان الرعب عقاباً، كان الصمت عقاباً، كان المسير على النار عقاباً، وهذا هو نهاية المطاف. عقاب آخر لو كان اعتاده منذ ثلاث سنوات لما كان، الآن على الأقل، يكترث به، مثلما يفعل هذه اللحظة. إن الجريمة لا منطق لها وكذلك العقاب، وحين يعتقد المرء أنه كان هارباً من العقاب يكتشف فجأة أنه كان معاقباً بطريقة خاصة، كنت مطلوباً، وكي لا أقع صرت مجرماً، وكي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة أخرى.

وفجأة يأتي العقاب وكأنه كان ينتظر طوال ذلك الوقت وراء كتفي ويترصد اللحظة المناسبة.

اللحظة المناسبة التي ولد فيها قاسم من جديد في طول الجليل وعرضه بعد غياب طويل. كالمد عاد فجأة فإذا به يملأ الجرود مرة أخرى، من الجرمق إلى ترشيحا إلى جدين إلى عكا. طار الغبار عن خيوط غير مرئية وربطها الناس باعتناء شبكة من الأساطير كانت مجرد أحداث لا يكترث بها أحد، وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب الحديدي في سجن عكا على قاسم، أو عبد الكريم، أو العاشق، أو السجين رقم ٣٦٢ انفتحت المصاريع عنه في كل القرى التي

كانت تتواصل كالشريط البائس الخجول من صفد إلى عكا، صار فجأة موجوداً لحماً ودماً حين غاب، وحين لم يكن يوجد منه في الحقيقة إلا أسماء لا رابطة فيما بينها، مثل مزق راية مهترئة جرجرت من ميدان هزيم إلى ميدان هزيم آخر، وحين كان هو ذاته وراء قلعة الحجار، تحت العتبة، في غرفة أضيق من رئتيه اللتين تنفستا الدم والرعب والجرود ثلاث سنين كالدهر.

الشيخ سلمان تحدث عنه تلك الليلة في الديوانية، كان غاضباً في البدء، ولكنه كان يهدأ كلما كان الفضول يغلب على التوقع القلق، الغابسية كلها حاولت تلك الليلة أن تذكره بالتفاصيل، ومضت «سمرا» تصهل طوال الليل وتضرب أكوام التبن بحافريها الدقيقين.

الكابتن بلاك تحدث عنه وفي صوته رنة الثأر الدفين الذي انتعش. وفي مركز البوليس في عكا فتحت الإضبارات من جديد ونفض عنها الغبار، وفي ترشيحا تذكره الناس فجأة وارتجف أحمد القاضي حين سمع قصصه ومسح على وجهه كمن ينسرب من كابوس جارح. وتذكر الحاج سالم يوم تصدى له رجل طويل ملثم بين الزيتون وسلبه فرسه وتركه مقيداً في الوحل. وتذكر رجال كثيرون قصصاً حدثت لهم ولجيرانهم، أو كادت تحدث لهم أو لم

تحدث لهم، وتنفس رجال عائلة الرخيّ ونساؤها الصعداء، وثمة قرى بعيدة عرفت الأخبار، وقبور سقيت بالماء من جديد، وقد تذكرها الناس فجأة ووضعت في مزهرياتها جرود النخيل مرة أخرى.

◆ ◆ ◆

قال الكابتن بلاك للميجور ماكلود فيما كان ينفض الغبار عن سترته:

- سأحتفظ به في سجن عكا من دون كل الناس. أعرف أنه صار ينبغي أن يُفتح ملفه من جديد ولكنني سأبقيه هنا، أتفرج عليه كل يوم، حتى أراه معلقاً. أنا لا أصدق أنه ظل ساكناً طوال ذلك الوقت الذي اختفى فيه عن أبصارنا، لا بد أنه سلب شيئاً هنا وقتل شخصاً هناك وغداً سترى كيف ستتدفق الشكاوى.

وقال له الميجور ماكلود وهو ينظر اليه من فوق سريره الخفيف:

- لم أرك في حياتي سعيداً كما تبدو الآن، يخيل إلي أنك تزوجت.

- تزوجت؟ أوف؟ أكثر من ذلك بكثير، أنت لا تعرف شيئاً، لست تدري ماذا يعني أن يسقط عبد الكريم أخيراً.

- أعرف، كنت تقول إن ذلك يشابه أن تجد نفسك فجأة في فراش مارلين ديتريتش.

- أنا قلت ذلك؟ متى؟

وطوى سترته ووضعها على الكرسي فيما ترك أذنيه مفتوحتين على وسعهما، وقال الميجور ماكلود:

- بعد أن هرب منك آخر مرة، أعتقد أن ذلك حدث منذ نحو ستة شهور

- آه . أكثر قليلاً. كان يوماً مرعباً ذلك اليوم خلت فيه أنني لن أفقد مستقبلي فقط، ولكن حاضري أيضاً.

- كنت مغتاظاً جداً يومها، ويبدو أنهم أنبوك بلا هوادة إلى حد رفضت أن تروي لنا كيف حدث الحادث.

- كان في الواقع سلسلة من المصادفات. كنا يومها في كوكبة من ثلاثة رجال خرجنا لنرافق جابي الضرائب الذي كان قد استعد للعودة من ترشيحا إلى عكا، كنت قد نسيت كل شيء عن عبد الكريم تقريباً، وعلى أي حال فقد كنت ما زلت أعتقد يومها أنه مختبىء في مكان ما حول طيرة دندن قرب يافا حيث شوهد هناك آخر مرة، وحين كنا على وشك الخروج من البلدة خيل إلي أنني لمحت رجلاً أعرفه، مر من جواري على ظهر حصان مثلما يمر بك

أي رجل في أية لحظة في أي مكان من تلال الجليل، لم ألحظ وجهه إلا لبرهة أقل من اللحظة ذاتها، وحين مر بنا بدأ وجهه يتشكل في رأسي قطعة صغيرة فوق قطعة صغيرة أخرى، مثلما يحدث حين تمسح بقماشة مبتلة وجهاً عتيقاً مغبراً متآكلاً في لوحة ما، وفيما كانت أصوات حوافر حصانه تدق نازلة رويداً رويداً ورائي كان وجهه يتكابر صاعداً في داخل رأسي، مرعباً ووهمياً وعلى بعد ذراع، مثل كابوس فاجأك مرة أخرى، بعد أن استيقظت، وراء المنعطف.

إن الزمن خديعة. اصطلاح واحتيال وإلا لما كانت تلك اللحظة الواحدة أطول من أية لحظة غيرها، ولما كان بوسع ذلك الزحام من الأوهام والحقائق والمشاعر، برعبها وتوقها وتحفزها وأملها ويأسها في آن واحد، أن تتسع له لحظة واحدة كانت في الوقت ذاته، للآخرين، مثل اللحظة التي سبقتها والتي ستلحق بها. دور الحصان عنقه فيما أخذت تخش على جسده المشدود أجراس الفضة الصغيرة، ورفعت بصري فإذا به، الكابتن بلاك، أمامي.

كان مشغولاً بإحصاء رجاله وترتيب مسيرتهم الصغيرة، فتقاطعت نظراتنا تقاطعاً خاطفاً دون أن تتصادم، ومن ساقيَّ اللتين كانتا تشدان حول ظهر الحصان العاري انتقلت إلى جسده رنة القشعريرة فانتفض، ولكني لجمته ومضيت هادئاً مثلما كنت،

أحصي دقات الحوافر تحتي وورائي متوقعاً أن تنقض السماء أو تتراجع في وهلة واحدة.

وتكّون في رأسي مثل زوبعة صغيرة. إنه عبد الكريم بلا شك وأنا الذي أعرف، وقبل أن أستدير أسمعته صوت البندقية تتأهب ومغلاقها يتراجع ويرتد، وصحت:

- عبد الكريم! قف وإلا أطلقت النار!

ووقف الحصان من تلقائه ثابتاً ولكنه، مثلما أردت، لم يستدر، كان الفرار موتاً، وبدأت شتلات التبغ حولي تتقصف واحدة وراء الأخرى وتسقط في صدري فأسمع أصوات تقوضها كالعويل. مرة أخرى، إذن، يا كابتن بلاك.

وعرفت لتوي أنه يدبر لعبة أخرى، ويقف هناك يفكر في تنفيذها، فغيرت مكاني بهدوء كي أفشل افتراضه دون أن أزيح عيني عنه وهو مستو هناك على ظهر حصانه يعطيني ظهره ببرود. كان حصانه عارياً ولكنني لم أكن متأكداً من أنه لا يحمل، في مكان ما تحت قميصه الفضي، سلاحاً.. وقلت بهدوء وقد استعدت رباطة جأشي:

- انزل عن الحصان وتقدم رافعاً ذراعيك.

وبدأت أنزل عن ظهر الحصان دون أن يكون في رأسي شيء

معين، ولكنني قبل أن ألمس الأرض سمعت صوت الكابتن بلاك، ترن فيه الشماتة:

- عبد الكريم... هنا ثلاث بنادق مصوبة إليك تماماً، لا ترتكب أية حماقة.

ونزل بهدوء، مثلما رأيته دائما، واستدار كأن الأمر لا يعنيه، رافعاً ذراعيه ولكنه لم يتقدم، وتبادلنا النظر وفهم كل منّا ما حدث ويحدث وسيحدث دون كلمة واحدة، وأغلب الظنّ أنه رأى نجمة جديدة تلمع على كتفي حين رأيت في اللحظة ذاتها سواداً قاتماً يحيط بعينيه، وقبل أن أطلب منه التقدم خطا جابي الضرائب إلى الأمام وهو يتنفس الصعداء:

- أي عبد الكريم هذا يا كابتن بلاك؟ نحمد الله أنك لم تطلق الرصاص على ظهر هذا الرجل البريء... إنه حسنين، أحد جامعي التبغ عند الحاج عباس، كل ترشيحا تعرفه.

وكنت أعرف تماماً أن الكابتن بلاك ظل طوال الشهور الستة الماضية فوق هذه الخديعة وخارجها، وأن الأمر لن يغير شيئاً ولكن ربما يعطيني لحظة أخرى أفكر فيها، ومثلما توقعت ضحك الكابتن بلاك تلك الضحكة العصبية التي تبصقها أسنان رجل يعرف أنه لن يستطيع أن يكسب النقاش إلا فيما بعد، وهزّ بندقيته وهو يشير

نحوي صائحاً:

- إنه عبد الكريم، وأنا الذي أعرف... تقدم ببطء إلى هنا.

وحدث الشيء، الرهيب قبل أن أتم جملتي.. كنا نقف وراء المنعطف مباشرة حيث لمحت عبد الكريم لأول مرة، وكان يبعد عنا حوالي خمسة أمتار، ولكن وجهه كان متجهاً نحو المنعطف، وهكذا فقد شاهد تلك الشاحنة اللعينة قبلنا حين أطلت بأنفها الأحمر منزلقة بلا صوت تقريباً حول الطريق الموحل، وفجأة انقلب كل شيء رأساً على عقب، وفيما كان السائق يكبح شاحنته تطايرنا من أمامه ناجين بأنفسنا، وهكذا طار عبد الكريم مثل حلم.

كنت قد بدأت أخطو حين رأيت الشاحنة فجأة تسدّ الطريق فتفتح أمامي أبواباً لا حصر لها، لقد دارت اللحظة الراعبة دورتها الجنونية، ووقف الكون كله على صهوة جواد. كانت الجياد جميعاً تقف على طرف الطريق تتلهّى بالتهام العشب، وقد لمحت الكابتن بلاك يدور حول نفسه مذعوراً حين كنت أعتلي صهوة أقرب جواد إليّ، وحماني المنعطف عن أبصار الجميع، وضربت كالريح في الوعر الذي يستعصي على الماعز.

لم يهرب عبد الكريم فقط، ولكنه هرب أيضاً بحصان الجابي، وفي سرجه ضرائب منطقة ترشيحا كلها... آلاف من الجنيهات مرتبة

ومربوطة. وكان من المفترض أن أكون مسؤولاً عنها وحامياً لها.. أنت لا تستطيع يا ميجور ماكلويد أن تعرف كيف اسودّت الدنيا في عيني: فهأنذا أقف هناك ليس مهزوماً فقط أمام عبد الكريم ولكن أمام كل الجليل، ومن حيث اعتقدت أنني سأنتصر زججت نفسي في معركة خسرت فيها شيئاً جديداً، لقد فاجأتنا الحادثة جميعاً، ولكن جابي الضرائب كان أول من استردّ وعيه فقفز كالضفدع المذعور إلى حصان عبد الكريم العاري، وحين استوى على صهوته نقّل الجواد الأبيض خطواته مكانها كي يحفظ توازنه ثم وقف كتمثال، وعبثاً راحت جهود الجابي وأزيز مهمازيه وسلخ سوطه، فقد ظلّ الحصان واقفاً كأن الأمر لا يعنيه، وكان علي أن أتصرف بسرعة فأرسلت جندياً إلى ترشيحا كي يبلغ ويستنجد، وأرسلت الجندي الآخر في أعقاب الشاحنة خشية أن يكون سائقها متواطئاً، وعدوت أنا، على ظهر حصاني، في إثر صدى عبد الكريم...

ولكن ذلك كله كان عبثاً: فلا سائق الشاحنة كان شريكاً في الحدث، ولا النجدة وصلت في وقتها، ولا أنا عثرت على عبد الكريم... أتدري؟ كنت أقول لنفسي وأنا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب أن الأرض ذاتها هي المتواطئة والشريكة، وأنك كي تقبض على عبد الكريم عليك أولاً أن تلقي القبض على الأرض... إنك

تبتسم، ولكن لو كنت مكاني لفعلت مثلي، وقفت فجأة وأخذت أطلق الرصاص على الشجر، على الصخر، على البلان، على شقوق السيول، على الطرق الرفيعة التي تطل وتختبىء.. وكان صدى الطلقات يمضي في ذلك العراء ويرتد إليّ كالقهقهات، وكان عبد الكريم ذاته وراء كل شيء في ذلك الجرد، يقيسني بعينيه اللامعتين الخبيثتين ويضحك، مع الأرض، على غضبي...

كانت حوافره ثابتة كأربعة مسامير هو يضرب فوق الشوك والصخور ويلتزم المنحنى مثل من تعلم أن يهرب، وسميته «ريح» فاستجاب دون تردد ومضى ينفض عرفه معتزاً وقابلاً لشراكة الفرار.. وبعد نصف ساعة عرفت أنني ضيعتهم مرة أخرى فأبطأت، وعندها فقط شعرت بالخرجين تحت فخذي ينطان برفق على ظهر «ريح» لوهلة حسبتهما محشوين بالطعام، ولكن الملامسة خيبت أملي.

نزلت وأنزلت السرج وفتحت الكيسين، فإذا بالمكان الأجرد يزهر بتلك الأوراق الخضراء، وإذا باللحظات الخارجة عن العقل تدور دورتها الجنونية من جديد، فهأنذا رجل غني، أغنى مما كنت أحلم وأنا طفل، ورغم ذلك فأنا لا أستطيع أن أشتري شيئاً، ولا حتى كسرة خبز، وليس لي في هذا الكون كله، من أوله إلى آخره، إنسان أستطيع أن أعطيه شيئاً، وفي الوقت نفسه فقد أضفت من حيث لا

أعي صفحات سوداء جديدة، مثيرة للغضب والهياج، في سجلي الموجود في مكان ما ينتظر أن ينفض عنه الغبار ذات يوم...

والكابتن بلاك المسكين أيضاً! يا لغرابة هذا الكون الرهيب. فحين حسب أنه استرد اسمه على ذلك المنعطف الجنوني خسر، في لحظة كالبرق، كل ما تبقى له من ذلك الإسم العريق الذي كان مرهوباً ذات يوم... إن شفقتي عليه تزداد في الوقت الذي تزداد فيه رغبته بقتلي...

رفعت الأوراق الخضراء جاعلاً من أصابع كفي مشطاً كبيراً وأخـذت أقلبها مثلما الفلاحون يفعلون بأكوام السنابل، وكان يكتسحني شعور أعرفه ينتابني حين أحمل بندقية غير محشوة في لحظة تحبل بالخطر. وهمهم «ريح» وهو يرصد بأذنيه أية حركة يمكن أن تنأم حوالي، فنظرت إليه مخلوقاً قادراً على أن يعطي دون حدود ودون مقابل ودون كلمة واحدة، وفي عينيه الواسعتين برق الحل.

ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً إلا أن ننتظر نهاية هذه اللعبة، أخذت أحفر بهدوء وهو ينظر إليّ، ثم أعدت النقود دون أن أعدها إلى كيسها الجلدي. حفرت عميقاً في الأرض حتى عجزت، وضعت الكيسين فوق بعضهما ورصفت الحجارة فوقهما وحولهما ثم أعدت

التراب، وفي التراب زرعت من جديد شجيرات الشوك التي اقتلعتها في البدء بعناية ومن جذورها وقست المكان بعيني وخطواتي وتذكرته جيداً، وعدت إلى صهوة «ريح» فأخذ ينحدر وحده على السفح هادئاً، فيما أخذت العتمة تتسلق السماء وراء الجبال البعيدة.

وسميت نفسي «قاسم» وكان «ريح» أول من عرف، ومضينا طوال الليل نسير ونقف ونغفو قليلاً ونتحادث ونغني بصوت خفيض ونبحث عما يتعين علينا أن نفعل. وفي الصباح التالي اتفقنا أن نودع بعضنا، فليس من الصالح بعد أن نظل معاً، نزلت عن صهوته حين كانت الشمس تشرق ومشطت عرفه بأصابعي فنّوح دون أن يفتح فمه وأخذ يهز رأسه وينفض عنقه وينقل حوافره وهو على باب قرار صعب، ثم استدار فخبطت راحتي على مؤخرته، مضى بطيئاً أول الأمر وهو يطأطىء رأسه، ثم انطلق فجأة دون أن يلتفت وأخذ يرفّ في ريح الصباح كالراية حتى غاب في الغبش.



نام الكابتن بلاك ملء عينيه تلك الليلة، كان يصحو أحياناً وهو يخشى أن يكون ما حدث مجرد حلم ثم يعود فيغفو دون أن تذوب الابتسامة عن شفتيه الحمراوين، وكان الميجور ماكلويد يراقبه وهو يخرج من كابوسه الطويل.. إن الميجور ماكلويد يعرف تماماً بأن الكابتن بلاك سيكون أول من يبكي على عبد الكريم إذا ما شنق.. فقد كانا، رغم كل شيء، عائلة واحدة.

وطوال شهور مديدة كان عبد الكريم كل شيء في حياة الكابتن بلاك، يمثل أمامه، ليل نهار، اليأس والأمل والخيبة والانتصار والدين والسداد في آن واحد. كان جزءاً من مشاعره وأضحى دون إرادته مقياسه للأمور والأشياء، وحتى عيد الميلاد كان بالنسبة للكابتن بلاك مناسبة يقيسها على عبد الكريم، وهو لن ينسى يوم قال له كئيباً:

- بودي لو أستطيع أن أتمتع بإجازة الميلاد.

وصمت قليلاً ثم أكمل:

- أن أقبض على عبد الكريم قبل العيد.

ولكن العيد مر، ذلك العام، دون أن يقبض عليه.. كان قريباً منه إلى حد كان يشمه مثلما تفعل كلاب الأثر، ورغم ذلك فقد استطاع أن يفر من أصابعه. وشغل الكابتن بلاك شهوراً بعد ذلك الحادث وهو يتعقب عبد الكريم، شهوراً ضائعة بلا أدنى ريب. فها هي الأحداث تقول إنه في الوقت الذي كان فيه الكابتن بلاك مشغولاً بالبحث عن عبد الكريم في الجنوب كان عبد الكريم يختبىء خلف اسم حسنين ويقطف التبغ بسلام في حقول الحاج عباس في ترشيحا!

ولكن الحاج عباس، حين استدعي للتحقيق إثر حادث حسنين مع الكابتن بلاك وجابي الضرائب، لم يكن يعرف شيئاً.. كان مثلنا جميعاً ضحية رخيصة لذلك الرجل الصامت، فقد جاء حسنين إلى بيته في ترشيحا مشعثاً ممزقاً منهكاً، قبل نحو عام من الحادث وطلب، مثل عشرات من الفلاحين في الموسم، أن يلتحق بحقول التبغ يقطف وينضد ويحرس وينقل ويحصي، كان يصطحب فرساً سوداء وصرة صغيرة وأوجاعاً في معدته، ولكنه كان رجلاً قوياً وفي ملامحه ما يطمئن.

كانت زينب قد كبرت فجأة في بيتي، انبثق جسدها على حين غرة تحت ثوبها، كأن الأمر قد تم بين العشية والصباح.. كنا قد

نسيناها تقريباً، واعتاد الناس أن يقولوا: زينب إبنة الحاج عباس. وكانت تعيش في بيتي منذ كانت في الثالثة وكانت تقول عني والدها وعن زوجتي أمها، ولكنها كانت بلا شك تعرف الحقيقة ولا ترى لزوماً لتعريفها أو التذكير بها، إن الأقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر، وحين رأيت حسنين للمرة الأولى واقفاً أمامي يطلب عملاً دون أن يلح ودون أن يتكلم كثيراً ودون أن تبدو في صوته رنة استجداء صغيرة، نظرت فوراً إلى أصابع يديه، وحين لم أر أي خاتم فيها قلت لنفسي: هذا هو زوج زينب.

ولكنني سألته إن كان متزوجاً فأجاب بالنفي، وسألته عن أهله فقال أنه يعرف فقط أن أمه عادت إلى حوران حين أرسل لها أخواله نعي والدها وتركته وحده يتدبر أمره ويلتحق بأخواله، وأنه يعمل الآن ليجمع قليلاً من المال يعيده إلى بلدة أمه التي لم يرها في حياته. وقلت لنفسي: هذا هو الرجل. وكان كل ما أحتاجه قليلاً من الاصطبار.

إن الأقدار تتساقط على رؤوسنا كالمطر من حيث لا ندري ولا نتوقع، وها هي حكاية زينب تدور دورتها الواسعة ثم تصل إلى نهايتها اللائقة..

ألم تكن أمها، هي الأخرى، من حوران؟ يا رحمة الله عليك يا

زيد.. أكنت تدري حين فعلت فعلتك أن السماء لا تنام؟ يومها نقم الناس جميعاً على تلك الزيجة وقالوا: ذهب زيد إلى يافا وعاد بعروس من حوران..

وصعقت قرى ترشيحا كلها حين عرف ناسها أن العروس كانت خادمة عند بيت الرخيّ، ولكن لو فكروا يومها هكذا: ومن هو زيد؟ إنه فلاح منفرد لا يعرف أبعد من أبيه ولا يعرف أحد من أين جاء، التحق بزراعة التبغ أجيراً، وحين صار في جيبه خمسة جنيهات سافر إلى يافا فإذا به يتزوج هناك ويعود بها.. فماذا كان سيحدث؟

ولكن الأقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر، وحين انفجرت الثورة في الجبل اختفى زيد مثلما ظهر تاركاً في ترشيحا زوجته وابنته الصغيرة دون أن يترك لهما شيئاً.. وقلنا يعود زيد اليوم، ويعود زيد غداً، ويعود بعد أسبوع، ويعود بعد شهر.. ولكنه لم يعد إلا بعد ثلاثة شهور جثة مطرزة بالرصاص ومحمولة على ظهر حمار. وقال الناس: هذا زيد وهذا بيته، وساق الإنكليز الحمار إلى البيت، وأطلت زوجته ونظرت إليه، وقالت للعسكر:

– أنا لا أعرف هذا الرجل...

مسكينة، حسبت أن ذلك سوف يحميها من العقاب، ولكنها كانت امرأة بلا ظهر، وحيدة أكثر من فأرة الحقل زمن القحل...

وحين أخذوها جاؤوا بزينب الصغيرة إلى بيتي. وقلنا: تعود أمها اليوم، وتعود غداً، وتعود بعد شهر، ولكنها لم تعد، ولم يعرف أحد ماذا حدث.

لقد التحق زيد بالشيخ القسّام في تلال يعبد مجذوباً بالكلمة القصيرة الكافية التي كان يقولها ذلك الرجل: موتوا شهداء، فمات زيد وضاعت أخبار زوجته وظلت زينب في بيتنا، وقالت زوجتي:

- نتركها هنا، وغداً تكبر فتخدم وتنفع ويأتي نصيبها فتتزوج ونكسب ثوابها.. فأي ثواب أكثر من أن نزوجها لرجل لا يعرف عنها إلا إنها من داري؟

طويت الفكرة في رأسي بانتظار الوقت المناسب وقلت لحسنين:

- إذهب إلى الحقول، وستجد العمل هنا مريحاً ومربحاً إذا كنت أنت مريحاً، وعلى أي حال فإن سلوكك وحده هو الذي سيحكم عليك، وإذا كنت طيباً فسترضى.



وأخذت أنظر إلى الحاج عباس جالساً وراء سبحته المصنوعة من بزر الزيتون، وقد لمعت حباتها بين أصابعه الثخينة، ورأيت في عينيه الباسمتين ما يشبه الفخ، أتراه يعلم؟ إنه يريدني لصفقة صغيرة مجهولة، الأيام وحدها ستظهرها. أتراه يعلم؟ أيريدني أن أقتل رجلاً وأتركه يمسح أصابعه في قميصي الملطخ؟

ولكنني كنت أريد العمل بأي ثمن، فقد كان العمل بالنسبة لي أكثر من طعامي وشرابي، كان مخبأي بعد ذلك الحادث التعيس وكنت لا أملك في هذا العالم إلّا مرتينة جيدة مدفونة في مكان لا يعرفه أحد، وحقداً أحمر يطل من حدقتي الكابتن بلاك إثر النزال الأخير بيننا أمام شجيرات الصبار الوحشي في الطيرة.

كان حسنين يرتجف، ولكن بكبرياء... وأحسست وأنا أنظر إليه واقفاً هناك ينقب في كلماتي القصيرة أنني أمام رجل خاص. أجل. هذه هي الكلمة. رجل خاص لست تستطيع أن تعرف عنه أكثر من

إحساسك به، وسيظل يطوي سره بعناية مثلما يتوجب علي أيضاً. لقد عبرت الصفقة بيننا في ذلك الصمت الصاخب فبت في اللحظة ذاتها التي عرف فيها أنني أخبىء له سراً، أعرف أنه يخبىء هو الآخر سراً آخر في المقابل، وحين جاءت هذه الفكرة إلى رأسي نظرت إليه فأخذ يبتسم ابتسامة صغيرة، كالمصافحة، ودون أن يقول شيئاً استدار ومضى.

ذهبت إلى الإسطبل فوضعت «الهيجا» في مربطها وعلقت لها، واستلقيت على كوم التبن جاعلاً من صرتي وسادتي وأخذت أنظر إليها واقفة هناك تضرب حوافرها برضى، فهي الأخرى وجدت سقفها ومربطها بعد طول طراد. إن الخيل تشبه الشجر، وبوسعي التيقن من هذا حين أرى «هيجا» بالذات تقف على قائمتيها الخلفيتين وتخبط ذراعيها في الهواء رافعة عنقها الطويل إلى الأعلى مصدرة صهيلاً راجفاً مثل صوت الريح حين تتسرب عبر أغصان شجرة متوحدة، في أي أرض كنت يا «هيجا»؟

إن أقدار الخيل مثل أقدار الرجال، أفي ذلك أيما شك؟ ومثل أقدار الرجال تتلاقى أقدار الخيل في البراري وتحت جبال الليل، ولولا ذلك لما لاقيت الـ«هيجا»، ولما كان بوسعي أن أكمل فراري من الطيرة، لقد هربت بعد اللقاء الأخير مع الكابتن بلاك راجلاً وفي

يدي بندقية جديدة، وبعد ليلتين سلبت فرساً أصيلة من رجل كان يغني وحده في الليل وكنت أعرف أن علي التخلص من هذه الفرس في أول فرصة، فأنت لا تستطيع ألا تكون معروفاً حين تكون مع فرس أصيلة معروفة، ولكن أقدار الخيل تتلاقى مثل أقدار الرجال، وفي الليل، بعيداً وراء تلال طولكرم وعلى مدارج كفر عناب سمعت أصوات حوافر تسترق الخطو، فقلت: أستبدل فرسي. رفعت كوفيتي حتى جفني وتيبست مع الحصان وراء المنحنى، ورأيت شبحهما يندمج كتلة من السواد، ولكنه رآني في اللحظة ذاتها وسمعت فولاذ بندقيته يمضغ الطلقة، وقال صوت بدوي:

- أهذه فرس أصيلة؟

ولم أجب. فتقدم على ظهر فرسه خطوة، وتبينت جزءاً من وجهه النبيل المتكبر، وقال لنفسه: إنها فرس أصيلة. ودار حولي واثقاً من فرسه، ثم دفع فوهة بندقيته في خاصرتي وقال:

- وأنت أيضاً سرقت هذه الفرس؟

وهززت بندقيتي برفق وحركت فرسي حوافرها وشمت بصوت مسموع، وكانت الصفقة تتم ببساطة بيننا نحن الأربعة، أنزل بندقيته وقال:

- أعطني فرسك وخذ فرسي.

ونزلت عن صهوتها في اللحظة التي نزل فيها، ونظر إليها وهو يعطيني اللجام وقال وكأنه يحادثها:

- إنهم يسمونني أبو الهيجا، سرقت هذه الفرس في البادية وجئت أستبدلها هنا، وسأعود بفرس لا يعرفونها..

ونظر إلي:

- وهذه فرس لا يعرفونها هنا.. وبهذه البساطة تداخلت أقدارنا نحن الأربعة في بعضها، امتطى فرسي وامتطيت فرسه وأسميتها «هيجا» ومضينا دون أية كلمة، عاد هو إلى باديته وراء الحدود، وضربت أنا مع «هيجا» شمالاً.

من أي أرض جئت يا أصيلة، يا امرأة، يا شجرة؟ كانت تغطس رأسها في التبن وتمضغ بدعة. وجاء الرئيس فنظر إليها ودار حولها فبادلته النظر، ومشط عرفها بأصابعه ثم جاء نحوي دون أن ينظر إلي وجلس إلى جانبي وهو يفتح علبة من المعدن الصدىء، ثم دفعها نحوي وهو يقول:

- لف سيجارة، إنه تبغ ممتاز.

وأخذنا نلف سيجارتين صامتين، وبلعت الدخان حتى قرارة رئتي فاغتسلت أعماقي بشهوة لا مثيل لها وكان ينظر إلي فاحصاً دون أن يقول شيئاً.

لقد شاهدت في حياتي عدداً قليلاً من الرجال يجترعون الدخان بهذه اللذة، وكان حسنين منهم، لا شك أنه اشتهى هذه اللفافة منذ ولد، وربما جاء إلى هنا كي يضع دخانها في صدره ويمضي، لم يبد في تلك اللحظة راغباً في أي شيء آخر من الحياة كلها. وكان كل شيء في هذا الرجل يقول لي إنه سيكون فلاحاً صعباً، وقد تعلمت دائماً أن الرجال الذين يمتلكون فرساً أصيلة يصعب التعامل معهم من فوق، ولذلك، فهم لا يبيعونها حتى لو فتك بهم الجوع، إنها – لهم – أكثر من صهوة أمينة، إنها ملاذ وصديق وشقيق في وجه العالم.

وقال لي:

– أنا الرئيس هنا، قال لي الحاج عباس عنك. وغداً سنبدأ معاً.

ولكنني كنت أعرف أنه يريد أن يقول شيئاً آخر، وخذله صمتي فقام بطيئاً، وعاد إلى الـ«هيجا» فخبط يده برفق على ظهرها العاري ونظر إلي:

– إنها فرس لا تقدر بثمن.

وهزت «هيجا» رأسها برضى وحكّت أنفها على ظاهر يده وعادت إلى علفها.

وقال الرئيس قبل أن يترك المكان:

– سيكون لنا حديث طويل غداً.

وإذ خرج جاء رجل آخر وقف على الباب وهتف:

- الحاج عباس يريدك يا حسنين.

وقمت، وكان الحاج عباس واقفاً أمام الإسطبل ينظر إلى ثلاثة أكياس من الطحين ملقاة فوق بعضها، أشار نحوها دون أن ينظر إلي، وتطوع الرجل الآخر فحكى:

- يريدك أن تدخلها إلى البيت.

وسحبت كيساً فوق بلاط المدخل الخشن، ثم استدرت وعطفته على ظهري ودخلت، وورائي جاء صوت امرأة يقول:

- إلى الأمام قليلاً.

وحين وضعته نظرت إليها فقالت وهي تبتسم:

- أنا زينب.

ولم أكن على استعداد لأرى ذلك الوجه حين استدار الظهر المغبر بالطحين، ولكنني حين فوجئت بعينيه السوداوين تنظران إلي لم أجد شيئاً أقوله غير اسمي، كان شاباً في أواسط العشرين إن كنت أحسن تقدير الأعمار، صلباً طويلاً وله كفان كبيرتان تلفتان الأنظار، إنهما تذكران بالحائط. وكان قميصه الفضي ممزقاً ومفتوحاً عن صدر أسمر مشدود العضلات، وكانت عنقه مشعرة وقوية تحت ذقن تكاد تكون مربعة كحجر محطم سقط هناك بالصدفة ونبت

عليه طحلب أسود شرس وقصير.. وحين نظرت إلى كتفه لاحظت ذلك الخط الداكن الذي خلفه هناك، بلا ريب، حزام بندقية. واستدار دون أن يقول شيئاً وخرج، ومن شق الباب رأيته يعالج الكيس الآخر بقدمين ثابتتين كجذعي شجرة. وسمعت عبود يقول له:

- قول الله يا حسنين.

فقلت لنفسي: اسمه حسنين.

ودخلت بالكيس الآخر وتركته ينزلق عن ظهري إلى جوار الكيس الأول، ومرة أخرى سمعت صوتها يقول:

- الله يخليلك هالهمة يا حسنين.

فهززت رأسي مشغولاً بتسوية الكيس واقفاً، ولكنها قالت:

- من أين أنت؟

وحاولت أن أجيب حقاً، ولكنني سمعت صوتاً ورائي، وجاءت خطوات الحاج عباس هادئة كأنها تسترق شيئاً، فعدت أدراجي إلى الخارج لأحمل الكيس الثالث، وظل الحاج عباس واقفاً إلى جوار زينب، وحين رجعت بالكيس كان ثمة شيء جديد في جو الغرفة الرطب استشعرته في نظرتها إلي.

وقف وأخذ ينظر إلينا واقفين معاً، زينب وأنا، كأننا أب مع ابنته حقاً، وعندها طلبت منه أن يسوي الكيس إلى جانب الكيسين

الآخرين ففعل دون تردد، لقد بدا الكيس أصغر من المعتاد وأخف وزناً حين شاله من أذنيه بين ذراعيه القويتين وحطه دون عنف في المكان المناسب، وفجأة وجدتني أقول له ما كنت أنوي أن أقوله له بعد شهر أوِ شهرين:

- سأعطيك زينب يا حسنين إن نويت على الخير.



وكنت أتوقع أن يحدث كل شيء، تلك اللحظة، إلا أن أسمع الحاج عباس يلفظ تلك الجملة بهذه البساطة، وكأنما من وقع اللطمة المفاجئة طار بصري إلى زينب دون إرادة مني، فاستدارت منتفضة وهرولت صوب الباب، ولكنني، في أقل من اللحظة، شهدت وجهها ورأيته جميلاً حقاً، وضحك الحاج عباس بما يشبه الغرغرة، مثلما يضحك الرجل الذي يرغب في ترقيع موقف مليء بالثقوب، وتقدم نحوي خطوة وأخذ يضرب كفه العجوز على كتفي وهو يقول:

- إنها بنت طيبة، ضع عقلك في رأسك.

برقوق نيسان

عندما جاء نيسان أخذت الأرض تتضرّج بزهر البرقوق الأحمر وكأنها بدن رجل شاسع، مثقب بالرصاص. كان الحزن، وكان الفرح المختبئ فيه مثلما تكون الولادة ويكون الألم، هكذا مات قاسم[1] قبل سنة،

---

١. كان قاسم خليل قد ولد في طيرة دندن قرب يافا في الخامس من أيلول من عام ١٩٤٠، وأصبح بعد سنة واحدة الإبن الأوحد في العائلة بعد أن مات شقيقه الذي يكبره سنتين إثر إصابته بالحصبة، ولم يتمكن قاسم من أن يدرس في مدرسة القرية إلا حوالي سنتين، وقد أصبح لاجئاً في نيسان من عام ١٩٤٨، قبل أن يكمل العام الثامن من عمره، وبعد ذلك سكن في أحد بيوت الصفيح في مخيم عقبة جبر قرب أريحا مع أبويه، وفي غضون ذلك كان يعمل أجيراً في كراج للسيارات في أريحا، وتمكن - حين صار في العشرين - من أن يطلق على نفسه لقب ميكانيكي، وكانت آماله تنحصر في أن يتمكن ذات يوم من أن يصبح ميكانيكي طائرات، أو على الأقل مالكاً لكراجه الخاص، إلا إنه في الخامسة والعشرين تخلى عن هذه المطامح. كانت الأحزاب الوطنية في تلك الفترة قد تخلخلت تحت الضربات المتلاحقة التي وجهتها السلطات الأردنية، وهكذا ضاع أمله في الالتحاق بالحزب الشيوعي الذي كان أحد رفقائه في الكراج يمتدحه أمامه، فقد ضاعت أخبار ذلك الرفيق فجأة، وهكذا فكر في أن ينشئ حزباً فدائياً بنفسه، والتحق بدورة تدريب للحرس الوطني لذلك الغرض، وحين شرع يرسم خططاً صغيرة ليبدأ اتصالاته تفجرت حرب ١٩٦٧، وسمع وسط الفوضى أن الفدائيين يحشدون صفوفهم وراء النهر، فترك والده ومخيم عقبة جبر واتجه إلى السلط في الثاني عشر من حزيران ١٩٦٧.

وقد دفن حيث لا يعرف أحد، دون اسم[٢]، ويبدو الآن بعيداً كأنه لم يكن طوال العمر إلا واحداً من هذه الأحلام العظيمة التي تظل مع المرء وكأنها جزء منه، وترافقه إلى الفناء دون أن توجد حقاً، ومع ذلك فإنها قادرة على أن تكون مثل حقيقة ما، يفتقدها المرء من حين إلى آخر، ويشعر في لحظة أو أخرى ملمسها وكأنها فرت للتو من بين راحتيه.

وكانت نابلس، ذلك الصباح، منكفئة على نفسها وكأنها ما تزال نائمة، وقال أبو القاسم[٣] لنفسه إن المدن مثل الرجال، تشعر بالحزن

---

٢. في نيسان من عام ١٩٧٠ نشرت الصحف أن دورية إسرائيلية اصطدمت بمجموعة من الفدائيين جنوبي البحر الميت، وقد استمرت المعركة عدة ساعات استشهد فيها من أصل سبعة فدائيين كانوا هناك ستة، وتمكن السابع من الفرار، وقد ظلت أسماء جميع الشهداء مجهولة حيث دفنت بمعرفة السلطات فحسب. إلا إن حادثاً صغيراً وقع عند ذاك يجدر تذكره: فقد عرضت الجثث على بعض الفدائيين الأسرى في محاولة للتعرف عليها، وكانت أربع جثث مشوهة بحيث استحال التعرف على أي منها، وأبدى أحد الأسرى شكه في أن تكون إحدى الجثتين الباقيتين لشاب يدعى قاسم، كان يعمل ميكانيكياً في أريحا، وفي اليوم التالي أحضرت الشرطة والد قاسم الذي اعترف بأن ولده يعيش شرقي النهر، ولكنه بعدما تفحص الجثة أنكر أن تكون لولده، وكان التشويه يمنع من الوصول إلى قرار، وحين ووجه الفدائي الأسير الذي تعرف على الجثة بوالد قاسم نفى أن تكون شكوكه مبنية على معرفة حميمة بالشاب المجهول، وما لبث أن تراجع عن شهادته، وهكذا أخلي سبيل الرجل العجوز بعدما سجل توقيعه وتعهداته على أوراق عديدة تنص على أنه سيتحمل بنفسه مسؤولية أي عمل يمكن لإبنه قاسم الذي يعيش شرقي النهر أن يرتكبه ضد سلطات الاحتلال.

٣. في آلواقع إنه يشعر الآن بأنه أكبر سناً مما هو حقاً، ويردد لنفسه أن الكوارث الثلاث التي نزلت به ينوء تحتها جبل: فقدان قريته ونزوحه عام ١٩٤٨، وموت أم القاسم بالسل عام ١٩٥٣، واستشهاد قاسم قبل سنة.

وتشعر بالوحدة. تفرح وتنام، وتعبر عن نفسها بصورة فريدة تكاد لا تصدّق، وتتعاطف بغموض مع الغرباء أو تركلهم.. بل إن الأحياء في المدينة مثل الأولاد في العائلة، لكل منهم شخصيته ومنزلته ومزاجه، فثمة شوارع محببة، وأخرى تتقاذف العابرين فيها بفظاظة، وشوارع خبيثة، وأخرى صريحة، ولكن أبا القاسم كان الآن منشغلاً بتلك الصورة الغريبة التي اقتحمته كأنها قذفت على رأسه بحجر: بدن الأرض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص، يتضرج بزهر البرقوق، ويكاد المرء يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته، ولا ريب أن قاسم بدا كذلك بعد هنيهات من سقوطه، ثم ذبلت بقع الدم على سترته الخاكية مثلما تجفف شمس الصيف المتوقدة أوراق البرقوق الهشة. استدار أبو القاسم، وأخذ يتأمل من جديد تلك البقع الحمراء الممتدة أمام عينيه فوق تلة صغيرة، ودون أن يعرف بالضبط ما الذي يريده. خطا نحو التلة، وأخذ يجمع باقة من الزهر المخضب بالاحمرار القاني، وقال لنفسه وهو ينحني: «منذ سنة وأنا آتي لسعاد[٤] بكفّين فارغتين

٤. ولدت سعاد وقاد في نابلس عام ١٩٤٥، وكان والدها موظفاً صغيراً في دائرة النفوس التي كانت آنذاك تابعة لحكومة الانتداب، وقد ظل موظفاً في نفس المرتبة والدائرة خلال هيمنة النظام الأردني على الضفة الغربية، وهكذا تمكن من إرسال ابنته سعاد إلى جامعة دمشق عام ١٩٦٢، وقد درست لمدة سنة في كلية الآداب، إلا إنها عادت والتحقت بقسم العلوم السياسية، وهناك تعرفت على أحد الشبان المتحمسين لحزب البعث، وما لبث أن ألحقها بالحزب ولكنها لم تستطع أن تكون عضواً منظم الولاء والنشاط، وكانت هذه المشكلة بالذات هي التي فتحت عينيها على رغبة عميقة في

كل شهر، ولا ريب أن منظر هذه الزهور سيبدو على الطاولة البيضاء جميلاً، ثم إن...» وقد شعر بالتعب وهو يستلّ الزهور الغضة، وبدت له أشد تمسكاً بالأرض مما خيل إليه حين كان ينظر إليها من بعيد، وما لبثت الأفكار التي كانت تحوم على غير هدى في رأسه أن أخذت تترابط بصورة تبعث على الدهشة، فقد تذكر أنه حين رأى سعاد لأول مرة في أريحا لفت نظره قرص أحمر من زهر البرقوق يتوقد وسط شعرها الفاحم السواد، وأن ذلك بعث فيه السعادة لأن طلال

دراسة المسائل التنظيمية في العمل السياسي، وساقتها هذه الدراسة إلى إلقاء نظرة دراسية على الحزب الشيوعي، وعلى بنية حركة القوميين العرب التي شعرت آنذاك أنها آخذة بالتمزق تحت وطأة صراع سياسي حاد في صفوفها لم يكن من الممكن الحفاظ مع حدته على الوحدة التنظيمية للحركة لو لم تكن مشدودة إلى قانون صارم للعلاقات الداخلية، ولم يكن من الممكن معرفة ماذا كان سيحدث لسعاد ولحماسها السياسي لو لم يصعد حزب البعث في تلك الآونة إلى مرتبة السلطة، وقد كان لسعاد آراء غامضة، ولكنها بالغة التأثير، بالتغير الذي يطرأ على الأحزاب السياسية عموماً، وذات البرامج الفضفاضة والغامضة خصوصاً، حين تهيمن على دفة السلطة، وهكذا فقد شهدت تلك الفترة من حياة سعاد وقاد خمولاً سياسياً وحيرة بالغة الحدة، ولكنها مع ذلك أبدت اهتماماً خاصاً بمجموعة من الشبان أبدوا تصميمهم على إحداث تغيير نحو اليسار في حركة القوميين العرب، وكان سبب هذا الاهتمام بالدرجة الأولى دراسة تعدها سعاد عن مكانة الناصرية في المسيرة الوطنية العربية في تلك الفترة، إلا إن الارتباط مضى أبعد من ذلك، فقد التحقت سعاد بالذراع الفلسطيني للحركة الذي كان قد بنى تنظيماً فدائياً صغيراً أطلق عليه اسم «شباب الثأر» وكانت تشعر بشيء من الاعتزاز حين كلفت بالقيام باتصال صغير في نابلس إبان عطلتها الصيفية، والعمل على بناء خلية هناك، إلا إن الحرب فاجأتها فقررت البقاء، وكانت القدرات التي أظهرتها في الاتصال وفي العمل هي التي أوصلتها في فترة وجيزة إلى مرتبة قيادية في نابلس.

قال له بأن سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره في أريحا[٥]، وتحدثه عن قاسم، وقد دقت هذه السيدة الباب في اليوم التالي، وطلبت منه أن يحدثها بالتفصيل عما حدث له حين استدعي إلى المخفر الإسرائيلي قبل أسبوع لتعرض عليه جثة أحد الفدائيين القتلى[٦] وحين كان يروي لها قصته أخذت عيناها السوداوان تنضحان دمعاً من تلقائهما، وقالت له:

- يا أبا القاسم ليس بوسع أحد أن يملأ مكان أحد، وقد كان

---

٥. كان طلال شاباً قصير القامة لم يبلغ العشرين بعد، ويبدو أنه كان يتقن عبور النهر ونقل الرسائل، وفي الماضي كان يزور أبا القاسم مرة في الشهر ويعطيه ثلاثة دنانير ويقول له: «قاسم يسلم عليك»، ولا يزيد كلمة واحدة. وفي آخر مرة رآه قال له إن سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره، وأنه لن يراه بعد. وكانت تلك السيدة هي سعاد ذاتها، ومنذ ذلك الوقت تولت سعاد إعالته، وكانت تعطيه خمسة دنانير في كل مطلع شهر.

٦. توجس خيفة منذ الصباح، وكان يشعر بثقل غامض يجثم على صدره، وعند الظهر جاء شرطيان وأخذاه إلى المخفر، وأخذ رجل أبرص، يلمع كأنه مدهون، يسأله عن قاسم، وبعد وهلة عرف في قرارة نفسه أن ولده قد قتل، ولكن الأبرص لم يكن قد أشار إلى ذلك بعد. «أتعرفين كيف يتصارع الرجل مع دموعه؟ مثلما يحاول فلاح أن يسدّ ثقوب الساقية بكفّيه. وظل الأبرص يسأل ولم أكن أعرف بماذا كنت أجيب»، وأخيراً أدخلوه إلى غرفة مترعة برائحة الموت «وكان قاسم هناك، ممدداً على طاولة، وقد نظرت إليه لحظة واحدة فحسب، ثم أخذت أنظر إلى راحة يده ورأيت فيها إرادة رجل بطل ظل ممسكاً بسلاحه حتى اللحظة الأخيرة، ولم تفرد أصابعه إلا بالقوة، وبعد أن مات.» وسألوه إن كان يعرفه، فنفى ذلك بشدة «إن قاسم شاب أطول قامة، وأشد سمرة، ثم إنه سافر إلى الكويت وهو يعمل في كراج للسيارات هناك»، وشعر بالعار لأنه يكذب، ولم يكن يعرف لماذا كان خائفاً إلى هذا الحدّ. «لقد أنكرته، ولكنه سيغفر لي، فأنا رجل عجوز لا أتحمل السجن ولا الضرب، وأريد أن أموت هنا، وليس شرقي النهر، أنت تفهمين ذلك أيتها السيدة.. أليس كذلك؟»

قاسم بطلاً، وعليك أن تكون فخوراً به، وقد فعلت شيئاً حسناً حين أنكرته لأنك أنقذت الكثيرين من رفاقه. لا تقل الحقيقة لأحد، وخذني أنا مكان قاسم.

ومنذ ذلك اليوم وهو يزورها في نابلس، ويقيم في بيتها يوماً أو يومين، ويأخذ الدنانير الخمسة ويعود إلى أريحا[٧]، وقد قال لها ذات يوم:

- الختيار.. هل ما زال حياً؟

وحين قالت له «لا»، أجابها:

- هل تقبلينني أباً؟

وقالت سعاد:

- يا أبا القاسم، أنت والدنا كلنا، لأن الشهيد كان أخانا كلنا.

وعندها سألها عما إذا كان يستطيع أن يفعل شيئاً مفيداً، وأجابته سعاد بنبرتها الحاسمة:

- ذات يوم، ربما.

وقف أبو القاسم مستشعراً الألم في خاصرته من طول الانحناء وكانت باقة الزهر الأحمر قد أصبحت كبيرة وبدت في يده الخشنة

---

٧. كانت وكالة الغوث قد قطعت إعاشته، وسحبت منه الدفتر الأحمر الذي كان يخوله تناول المؤن، وذلك لأن تقارير شعبة التحري في الوكالة قد أثبتت بأن إبنه يحصل مدخولاً شهرياً يزيد عن عشرة دنانير.

شعلة من اللهب، ووراء التلة كان بيت سعاد بشبابيكه الصغيرة في الطابق الثاني، وقال لنفسه: ربما كانت تنظر إليّ الآن، وقرر أن يبادرها بالجملة ذاتها التي بادرته بها حين زارته لأول مرة[٨] في أريحا، ومن ثم انطلق نازلاً التلة إلى الطريق، ومضى نحو منزل سعاد.

آخر شيء يذكره أبو القاسم من عالمه القديم كان ذلك السلم الطويل الخشن الذي يوصل إلى بيت سعاد، إلا إن الباقة الحمراء التي كانت تتوقد في كفه ظلت أكثر رسوخاً في ذاكرته، منذ هذه اللحظة، أكثر من أي شيء آخر: لقد صعد درجات السلم ذلك الصباح دون أن يراوده أي شك بأنه سيعود فينزلها كما صعدها، ويعود إلى عالمه القديم الذي يبدو له الآن أنه غادره تماماً. إن للرجال أقدارهم المكتوبة منذ الأزل، والتي هي مثل أسمائهم، تلتصق بهم في لحظة لا يدركون كيف جاءت. لقد قرع الباب متوقعاً وجه سعاد بملامحه القاسية، ولكن الجميلة، إلا إنه فوجئ بقبضة قوية تعض كتفه، وتجذبه بعنف إلى الداخل، ثم سمع اصطفاق الباب وراءه مثل انفجار.

وحين استرد توازنه على المقعد الذي قذف إليه، أطلت عليه

---

٨. دخلت البيت، وانتزعت الزهرة الحمراء من شعرها وهي تقول له: «البرقوق ورد الفقراء يا أبا القاسم»، وبعد هنيهة قالت له: «أهل القسطل كانوا يقولون: هذه دماء الشهداء تطل علينا».

ثلاثة رشاشات، ووراءها وقف جنديان وضابط. وفتح أبو القاسم فمه دون أن ينوي قول شيء معين، إلا إن الضابط نهره:

- هش.

وأخذ أحد الجنديين يفتشه، باحثاً في جيوب قنبازه عن شيء ما، وعندها تنبه أبو القاسم إلى وجود ثلاثة أشخاص آخرين في الغرفة، واقفين ووجوههم إلى الجدار، وفي الزاوية كان ثمة طفل في العاشرة يبكي بما يشبه الهمس، ولم تكن سعاد هناك، وبدت صورة والدها المعلقة على الجدار، بشاربيه العظيمين[٩] أكثر غرابة مما كانت في أي وقت مضى، وكان ما يزال مشوشاً، غير قادر على إعادة ترتيب ما حدث، حين قبضت يد الجندي بشدة على زنده ورفع يده بعنف إلى فوق: عندها فقط شاهد باقة الزهر الأحمر مرة أخرى، وتعجب لهنيهة كيف لم تسقط من يده، ولم تتمزق وسط ذلك العراك الأحمق الذي يجري دون هدف معين. ودفعه الجندي إلى الحائط، وساعده الجندي الآخر في صلبه أمام الجدار بذراعيه المفتوحتين إلى أقصى ما يستطيع، وبهدوء أرغمه الضابط على فتح كفه ببطء، وتناول الباقة

---

٩. حين قال لسعاد مرة إن شاربي والدها في الصورة يبدوان مخيفين، ضحكت برهة، ثم انصرفت إلى التفكير، وأخيراً سألته: «ماذا يحدث للشوارب، يا أبا القاسم، حين يأكل الدود جسد الرجل الميت؟» ومنذ ذلك الحين وهو غير قادر على صرف هذا السؤال من ذهنه كلما رأى صورة الأب، بشاربيه الكبيرين.

بحذر مبالغ به، وسحبها بما يشبه الاحتفال المنظم على الطاولة الرخامية[١٠]، ووقف يتأملها لحظة، ثم استدار فجأة بعنف:

- ما هذا؟

- هذا؟

- أجل ما هذا؟

- كما ترى، زهر يا سيدي.. برقوق نيسان.

- هه!

وابتسم ابتسامة خبيثة ونظر من طرف عينيه إلى الجنديين، وعاد يسأل وكأن فترة المزاح التي أتاحها قد انتهت:

- ما هذا؟

- ورد، زهر، برقوق، يا سيدي.

- إنني أسألك للمرة الأخيرة.. ما هذا؟

ولم يستطع أبو القاسم أن يعرف إن كان الضابط يحاول أن يجعل منه أضحوكة أم أنه جاد حقاً، واكتسحته موجة من حيرة حزينة، وأخذ ينظر حواليه محاولاً الاستنجاد بشيء ما. كان الطفل قد كف عن البكاء، وأخذ ينظر بفضول إلى باقة الزهر الأحمر فيما

---

١٠. مرة قالت له سعاد وهي تشير إلى الطاولة، وكانت مغطاة بشرشف سكريّ اللون مشغولة حواشيه بالصنارة: «انظر ماذا كانت تفعل أمي طوال عمرها، تشتغل بالصنارة وتفني عينيها كي تبدو طاولة أبي محترمة أمام ضيوفه!»

كان وجهه يكتسي بملامح تشبه الدهشة، وتذكر سعاد فيما كانت الأفكار تعود إلى التراكب في رأسه، وتساءل إن كان يتعين عليه الآن مرة أخرى أن يدخل الغرفة الثانية وينظر إليها ممددة على السرير وراحة يدها مفرودة الأصابع بالقوة وملطخة بالدم.

- ماذا يمكن أن يكون هذا يا سيدي غير زهر البرقوق الذي تفتح هذا الصباح على قارعة الطريق؟

- أنا الذي أسألك.

وهزّ أبو القاسم كتفيه وسكت. لقد أدرك أن الكلام لم يعد يفيد أحداً، وأن ثمة شيئاً لا يفهمه يحدث بغموض، وأمام مثل هذه الحيرة لا يسعه في الواقع إلا أن يصمت، إلا إن الضابط نهره:

- تهزّ كتفيك وكأنك بريء! أتريد أن أساعدك قليلاً؟ من الذي أعطاك هذه الباقة.. ولماذا؟

- قطفتها عن الطريق، وكنت....

- أأنت عشيقها؟

وضحك الجندي، فيما تساءل أبو القاسم:

- استغفر الله، عشيق من؟

- عشيق العفريتة التي تسكن هنا...

- أنا رجل عجوز يا سيدي، أيمكن أن يحدث هذا؟

- إذن لماذا أحضرت الزهر؟ من الذي أرسلك؟

- جئت...

إلا أن صورة قاسم جاءت عاصفة مثل الارتطام، ووراءها جاءت صورة سعاد، ولم يعد يعرف ماذا يتعين عليه أن يقول، فيما أخذ ينظر حواليه وهو شديد الارتباك، محتاراً تحت النظرات التي كان يسلطها عليه، ثم سأل بصوت أدهشه كيف انفلت من صدره مليئاً بالاستجداء:

- ماذا حدث لسعاد يا سيدي؟ هل هي بخير؟

- كفى تمثيلاً أيها الشائب، وقل لي ما معنى هذا؟

ونظر أبو القاسم إلى حيث أشار الضابط، كانت باقة الزهر الأحمر ملقاة فوق الطاولة، وبدت أقل جمالاً مما كانت، وأجاب:

- ماذا يمكن للزهر أن يعني يا سيدي غير الودّ؟

- هه!

- إسأل هؤلاء كلهم.. أيعني الزهر غير الودّ والاحترام؟

- من الذي بعثك بالباقة؟

- أنا الذي قطفتها.

- من الذي طلب منك أن تقطفها؟

- لا أحد..

- ما هي علاقتك بسعاد إذن؟ هل أنت عشيقها؟

وأخذ الجندي[١١] الواقف قرب الطاولة يضحك بصوت مكتوم، وقال شيئاً ما لم يسمعه أحد بوضوح، وعاد فضحك من جديد لفترة

---

١١. كان يهودياً مغربياً اسمه إبراهيم، ولد في الدار البيضاء عام ١٩٤٥، وكان أبوه يمتلك دكاناً صغيراً في حي شعبي لبيع الأقمشة وبعض الألبسة الجاهزة، أما شقيقه الأكبر فقد كان عاملاً في مصنع للنسيج يقع على بعد يسير من المدينة. كان الوالدان تقيين، إلا إن الأخ الأكبر، يعقوب، التحق بتنظيمات الشغيلة وأخذ يظهر ميولاً شيوعية، ولا شك أن ذلك سبب ارتباكاً كبيراً في المنزل، فقد كان الأب يربط بشدة بين الشيوعية وبين العلاقات السوفياتية-المصرية وبالنتيجة بين الشيوعية وبين الحرب الإسرائيلية-العربية. وفي أحيان كثيرة كان الجدل العنيف بين الأب وبين يعقوب يوشك أن ينتهي إلى انفصام في العائلة التي لم تعتد على هذا النوع من التناقض، وقد وصلت الأمور في توترها إلى الذروة حين ألقى البوليس المغربي القبض على يعقوب في الاضطرابات العمالية التي وقعت في عام ١٩٦٣، وذاقت العائلة كلها من نتائج هذا الحادث، وتعرضت مثل عوائل العمال جميعاً في تلك الفترة، إلى تشديد مبالغ فيه من قبل السلطات التي واجهت النشاط النضالي المتزايد لاتحاد الشغيلة المغربي وللتحالف الذي اشتد آنذاك بين الاتحاد هذا وبين الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وبين عدة أحزاب سياسية تقدمية، بالمزيد من العمل القمعي. وفي تلك الفترة وجد الأب في اتصال أجراه معه رجل فرنسي فرصة للخلاص من كل تلك الشدة، وقد انتظر على مضض خروج يعقوب من السجن فرحل مع العائلة على متن زورق صغير، مع عدد آخر من الأشخاص إلى الساحل الإسباني، ومن هناك بدأت الرحلة الأكبر إلى إسرائيل. إلا إن يعقوب قرر معانداً أن يبقى في فرنسا. فلم تكن خطط الوكالة اليهودية ودوائر الهجرة لتروقه، وهكذا مضى إلى الأحياء الباريسية التي يتواجد فيها العمال المغاربة حيث وجد الكثيرين من رفاقه القدامى. أما إبراهيم، الذي صار منذ تلك اللحظة أبراهام، فقد وصل في أواخر ١٩٦٥ مع عائلته إلى ميناء حيفا، وكان الأب محظوظاً إذ أسكن في ضاحية قريبة من تل أبيب، وقد تمكن في أقل من عام أن يشارك رجلاً آخر في ملكية دكان صغيرة لبيع الأقمشة والملابس الجاهزة. أما أبراهام فقد أصبح عاملاً في معمل للنسيج يقع غير بعيد من حيث يسكن، إلا إنه، منذ حرب ١٩٦٧، فضل أن يظلّ جندياً في الجيش.

قصيرة وصمت حين رمقه الضابط[١٢] بشدة، أما أبو القاسم فقد شعر بأنه قد اصطيد، وبأن أكفاً جبارة تطبق على صدره، وأنه بحاجة إلى سعاد الآن أكثر من أي وقت مضى.. أترى انتهى الصمت؟ أصار بوسعه أن يقول لهم بأن ذلك الفتى المضرج، الممدد على الطاولة في مخفر أريحا هو ابنه قاسم؟ أم أن ذلك كله قد أضحى الآن سراً أكثر حاجة للكتمان مما كان في أي وقت مضى؟ لقد أحس فجأة بأنه مؤتمن على شيء خطير لا يعرف ما هو بالضبط، وربما كانت حياة سعاد نفسها، بل حياة هؤلاء الشبان الثلاثة الواقفين ووجوههم إلى الحائط، بل ربما حياة ذلك الطفل الصغير أيضاً، معلقة في كلمة واحدة قد يلفظها في أية لحظة دون أن يدري، أيمكن لذلك كله أن يكون حقيقياً؟

- إنها باقة زهر يا سيدي، وهي لا تعني شيئاً خطيراً على الإطلاق. قلت لنفسي وأنا أمر من هنا: هذا بيت صديقي القديم، وابنته وحيدة فيه، ولا بأس لو حملت لها باقة زهر..

- لا فائدة من الكذب أيها الشيخ الخبيث. سوف ترى بعد برهة أن الصدق هو أقصر الطرق إلى السلامة.. أتقول الحقيقة الآن أم ماذا؟

---

١٢. برتبة كابتن، وكان جندياً محترفاً مع الفرقة اليهودية في الجيش البريطاني منذ الحرب العالمية الثانية، وقد نال أوسمة عدة لخدماته في المخابرات.

- زهر يا سيدي، زهر.

- هش..

وفي الخارج جاء الصوت خافتاً في البدء، ثم أخذ يعلو شيئاً فشيئاً، كانت ثمة خطوات تصعد الدرج، وشعر أبو القاسم بأن الأمر آخذ في التعقد، وأن الفخ المنصوب في الغرفة إنما يتعلق بقضية أكثر خطراً مما يعتقد، وبعد برهة دقت يد ما خشب الباب، وفي اللحظة التالية انقض الجنديان، وقد فتح الضابط الباب فجأة، على الرجل الواقف هناك وقذفاه إلى الداخل.

وامتلأت الغرفة فجأة بجلبة غريبة، وأخذ الطفل الذي كان قد أركن إلى الصمت قبل برهة يبكي من جديد، بنشيج أكثر مرارة، فيما مضى الجنديان يفتشان الرجل بعنف وشراسة ثم ساقاه إلى الحائط وأرغماه على رفع ذراعيه إلى الأعلى ووجهه نحو الجدار، وعاد الجنديان فوضعا الأوراق التي انتزعاها من جيوبه على الطاولة، ووقفا وراء الضابط الذي قال بصوت يملؤه رنين الانتصار:

- صيد ثمين اليوم، هذه الملعونة سعاد كانت تعيش تحت بصرنا ونحن لا نعرف، وها هم أفراد العصابة يتقاطرون إلى بيتها واحداً إثر الآخر، أنت! ما اسمك؟

وأجاب الرجل الجديد ووجهه ما يزال إلى الحائط:

- إنني زياد حسين، والد الطفل الجالس هنا يا سيدي، جئت أفتش عنه بعد أن تأخر..

قال الضابط:

- إذن أنت الذي أرسلته..

- نعم يا سيدي، خبزنا صباح اليوم صدراً من الكنافة، وكعادتنا في الحي بعثنا مع وليد صحناً لسعاد، وعندما تأخر وليد جئت أبحث عنه.

ولأول مرة منذ أن دخل الغرفة شهد أبو القاسم صحن الكنافة على الطاولة، وكانت القشرة الشقراء تلمع من فرط ما أشبعت قطراً، وتساءل بينه وبين نفسه: أتراها قصة حقيقية.؟ أيمكن أن يكون زياد هذا والد أو شقيق فتى ما، استشهد ذات يوم، وهو يأتي كل شهر لسعاد كي يأخذ خمسة دنانير؟

وقال الضابط فجأة:

- استدر وانظر هنا..

واستدار زياد، فبدا وجهه شديد الصفرة، كانت عيناه كبيرتين، وربما بسبب حجمهما بدا خائفاً أكثر مما كان صوته يوحي، وكان أول ما فعله أن نظر حيث كان الطفل جالساً ينشج بهدوء، وهز رأسه هزة خفيفة جعلت الطفل يصمت، ثم أخذ ينظر حواليه

متفحصاً الموجودين باعتناء، وسأله الضابط:

- هل تعرف أياً من هؤلاء؟

- لست أعرف أحداً، بل إنني أكاد لا أعرف سعاد نفسها، ولكن العادات يا سيدي تقتضي منا أن نرسل مثل هذه الهدايا الصغيرة إلى جيراننا.

وأشار نحو الصحن، وافتعل ابتسامة سمجة:

- إنني غالباً ما أفشل في صنع الكنافة، وأخشى أن يكون طعم هذا الصحن هو الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها..

وضحك وحده ضحكة صغيرة، ثم صمت دون أن يخفي حرجه، وعاد يتودد بعد لحظة:

- هل أستطيع أن آخذ وليد يا سيدي وأذهب إلى البيت؟ إن أمه ستشعر بالقلق..

- هش..

- هل حدث شيء لسعاد يا سيدي؟ هل أمسكتموها؟

- لماذا تسأل؟

- لأنها جارتنا..

- ماذا تعرف عنها؟

- إنها طالبة، تقيم هنا في الصيف، ونادراً ما يزورها أحد، وقد

أعطت هذه السنة بعض الدروس في «الأونروا».

- وأين هي الآن؟

- لست أدري يا سيدي، كنت أعتقد أنها هنا، ولذلك أرسلت لها صحن الكنافة.. ماذا فعلت يا ترى؟

ونهره الضابط بحركة من يده، وأخذ يتجول في الغرفة وهو يفكر ثم سأل فجأة:

- أتعتقد أنها ستعود إلى هنا؟

- من؟

- سعاد طبعاً أيها الغبي..

- لست أدري. هذا بيتها على أي حال، وكل إنسان يعود إلى بيته..

وقاطعه الضابط بحدة:

- إلا إذا استطاع الهرب قبل ذلك.

وخيم الصمت من جديد، فيما ظل زياد[13] واقفاً ينظر إلى طفله

١٣. لم يكن زياد حسين يعرف سعاد معرفة حقيقية، كان يعرف أهلها بصورة غامضة، وكان معجباً بها من بعيد لكونها أظهرت عدة مرات خلافاً مع والدها الذي كان يحتقره بصورة ما. كان زياد عضواً قديماً في الحزب الشيوعي، ثم ترك الحزب منذ بدأت المصاعب تشتد في أوائل الستينات ولكنه لم يترك حماسه له. كان أستاذاً في المدرسة الثانوية، وكان يعتبر من المثقفين الأكثر اطلاعاً في نابلس، وربما كان هذا بالذات ما جعل كراهيته لوالد سعاد تقليداً قديماً لا يعرف كيف نشأ، وقد ظلت هذه الكراهية حتى بعد موته. وقبل ذلك كان قد سمّاه «أكاكي أكايفتش» وكان بالفعل يرى فيه تجسيداً حقيقياً لبطل

بحيرة، وفجأة حدث شيء غريب، لم يلحظه إلا أبو القاسم، فقد التقت عيناه بعيني زياد، ولمح فيهما بومضة تشبه البرق رسالة قصيرة، تشبه أن يقول المرء للآخر: «أيها الرجل، إننا نعرف بعضنا، فاطمئن..»[١٤]، وأحس أبو القاسم بكنز غامض يملأ صدره، وأن عليه

«غوغول» في قصة «المعطف». ويشاهد في تصرفاته نموذجاً لذلك البيروقراطي ضحية البيروقراطية المضحك الذي لا يكف عن النسخ، ولهذا بالذات أعجب بسعاد بالرغم من أن سعاد في تلك الفترة لم تكن لتخفي، شأنها شأن أعضاء حزب البعث وأعضاء حركة القوميين العرب، كراهيتها للشيوعيين وحملاتها الدائمة عليهم.

١٤. الصحيح أن تلك النظرة لم تكن رسالة بالمعنى الحقيقي، والصحيح أكثر أنها كانت تشبه أن يقول المرء للآخر: «ها! هذا هو أنت إذن!» وسببها لا ينفصل عما حدث ليلة أمس. فعند منتصف الليل قرع باب بيته بشدة، وإذا بسعاد، التي لا يذكر أنها زارتهم قبل ذلك، تقف هناك مضطربة، وقد أدخلها وأيقظ زوجته ولم يشعل الضوء، وقالت له سعاد بسرعة: «أريد مساعدتك أيها الرفيق زياد.» ولاحظ هو كلمة «رفيق» التي هزت فيه مشاعر قديمة وحارة. ومع ذلك قال لنفسه: «الله الله يا زمان.. الحركيون يقولون رفيق!» وأخذ سعاد، دون أن يتكلم، وأجلسها في الصالون. ومضت تقول: «لقد قبض الإسرائيليون على إحدى الرفيقات، وأخشى أن تعترف بعلاقتها بي، لا أستطيع الذهاب إلى المنزل.» وأحس بشيء من الخوف، إلا إنها استطردت: «القصة هي أنني لا أريد أن أثير شكهم في حال عدم اعتراف الرفيقة، ولذلك فإنني لن أركن إلى الفرار إلا إذا تأكدت من أنهم اكتشفوا كل شيء.. هل تستطيع غداً صباحاً أن تستكشف لي البيت؟ هل جاؤوا أم أنهم...» وأخذت نفساً عميقاً وأكملت: «أريد مساعدتك. إن المسألة معقدة... أسلوبهم هو أن يتسللوا إلى البيت كي يقبضوا على أكبر عدد ممكن من المتصلين بي، لا أريدهم أن يقبضوا على طلال..» وبعد ذلك أمضى زياد وسعاد طيلة الليل وهم يرسمون الخطة، وقد اهتديا إلى النقطة التي يكتشفان فيها تفاصيل ما سيحدث في بيت سعاد عن طريق إرسال وليد بصحن الكنافة منذ الصباح، وفي حال تأخره تنطلق سعاد شرقاً، ويصبح على زياد أن يتدبر باقي المهمات: «سيأتي رجل عجوز اسمه أبو القاسم، إذا أدركته قبل الوصول إلى البيت دعه يأخذك إلى طلال، إنه وحده الذي يعرف أين يجده...» وقد مضت سعاد متنكرة باتجاه النهر بعد ربع ساعة من غياب وليد، الذي لم يكن يعرف شيئاً عن دوره.

الآن أن يكون أكثر حذراً، فثمة أمور كبيرة تجري، وهو بلا ريب يلعب فيها دوراً كبيراً دون أن يعرف على وجه التحديد ما هو دوره هذا، على أنه تيقن الآن من أن هذا الرجل، الباحث بقلق عن إبنه، هو الذي ينبغي أن يقود خطواته منذ هذه اللحظة، واستجمع أبو القاسم أطراف شجاعته وقال:

- ألا تستطيع أن تقول لهم يا سيدي إنني رجل بريء وإن عليهم إطلاق سراحي؟

وحدث شيء غريب في الغرفة، إذ أخذ الجميع يضحك، بما في ذلك الأستاذ زياد والضابط، وقال زياد:

- ماذا تحسبني أيها العجوز؟ إنني في وضع أكثر سوءاً من وضعك..

وقال أبو القاسم مصرّاً:

- إنها باقة زهر يا سيدي، باقة زهر فقط..

- ولماذا تكون باقة الزهر أكثر براءة من صحن الكنافة؟

وصاح الضابط:

- هش!

وقال زياد بلهجة ضارعة، متجهاً نحو الضابط:

- ألا أستطيع يا سيدي أن آخذ إبني وليد وأمضي؟ إن صديقه

طلال ينتظره..

- هش..

ولمح أبو القاسم مرة أخرى تلك الرسالة الغامضة تومض كالبرق في عيني زياد وهما تطلان عليه وكأنهما تعبران به، ولكنهما كانتا تحملان رسالة، وأبو القاسم يعرف أكيداً أنهما كانتا كذلك، إلا إنه لم يكن قادراً على فهمهما، ثمة علاقة ما بين باقة الزهر وصحن الكنافة، وربما كان الطفل الذي اسمه طلال هو جزء من تلك الرسالة الغامضة، ولكن أبا القاسم لم يكن ليستطيع أن يفهم أولئك الأساتذة أو يتجاوب مع إشاراتهم، حتى في مواقف أكثر طلاقة من هذا الموقف، وأورثه هذا الشعور غضباً مهيض الجناح، فضرب راحتيه على ركبتيه وقال:

- لست أفهم شيئاً.. لست أفهم شيئاً..

ونظر إلى زياد، آملاً أن تستطيع عيناه الشائختان أن ترسلا شيئاً إلى الرجل الواقف هناك، فيما أخذ الضابط والجنديان ينظران بفضول إلى الرجل العجوز وهو يواصل ضرب راحتيه على ركبتيه، وأخيراً قال الضابط:

- إن قصتك لم تنته أيها الشيخ الخبيث، بل إنها لم تكد تبدأ، فأحسن لك أن تلتزم الصمت، أما أنت فسوف تظل معهم. إن كل

من يأتي إلى هذا البيت، طوال اليوم والأيام القادمة، هو متهم بالضرورة، التحقيق سينظر في أمر إطلاق سراحكم أو اعتقالكم، والآن لا أريد أن أسمع صوتاً..

وصاح زياد:

- ألا نستطيع أن نرسل كلمة إلى أهالينا؟

- قلت لكم أن تصمتوا..

- ألا تستطيع أن تقول لنا لماذا نحن هنا؟ ماذا فعلت سعاد؟

- هذا ليس من شأني، ستعرفون كل شيء في التحقيق..

- ما ذنب هذا الشيخ؟ إنه يبدو أكثر براءة منا جميعاً، ألا تسمحون له بالذهاب إلى بيتي ليطمئن زوجتي، ويطمئن طلال؟

- قلت لك أغلق فمك، وإلا أغلقته بالقوة..

وأخذ أبو القاسم ينظر مجدداً إلى زياد، غير قادر على فهم ما يجري على وجه التحديد، وقد استطاع أن يلتقط للمرة الثانية اسم «طلال»، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يفهم ماذا يعني هذا كله، وماذا يتعين عليه أن يفعل، ومضى يتململ في مقعده، مستعيداً في ذاكرته صورة طلال القديمة، الذي صار يراه لماماً منذ أن تسلمته سعاد، إنه يدرك أن زياداً يريد أن يقول شيئاً عن طلال، ولكن أي طلال؟ وما علاقته هو بالأمر. لقد تذكر الآن أنه، مرة، سأل سعاد إن

كان طلال يعمل معهم، فضحكت وقالت:

- لولا طلال لكانت حالتنا حالة.. طلال يا أبا القاسم رجل، رجل قادم من تحت..

أيمكن أن يكون الأمر على هذه الخطورة.؟ إن المفتاح بيد الأستاذ زياد، وهو وحده الذي يجيب على هذه الأسئلة، ولكن لماذا لا يفعل؟ إذا كان الأمر خطيراً على هذه الصورة، فلماذا لا يقدم الأستاذ زياد على التصرف؟ وفجأة سأل أبو القاسم نفسه: لو كان قاسم هنا، مكان الأستاذ زياد، كيف كان سيتصرف؟ ثم عاد فسأل نفسه مرة أخرى: لو كان مكاني، ماذا كان سيفعل؟

وقاطعه صوت مكتوم يشبه خطوة خائفة، وكان يمكن لهذا الصوت أن يعبر دون انتباه لو لم يتحرك الضابط بهدوء، ويرفع سلاحه عن ركبتيه وهو ينظر نحو الجنديين اللذين اتجها نحو الباب دون أن يصدرا أي صوت. ومضت فترة من الوقت خيم فيها صمت عميق، ثم صدر ذلك الصوت المكتوم لخطوة خائفة مرة أخرى، وبدت وكأنها في أول السلم، وعاد الصوت يخطو، وكأنه يصعد بحذر.

ودون أن يتخذ قراره بصورة مسبقة، انتصب أبو القاسم وصاح:

- لماذا تقبضون علينا؟ ماذا فعلنا؟ إننا أبرياء..

وانقض عليه الضابط وصفعه بقفا كفه فألقاه على الأرض،

واندفع الجنديان نحوه وجراه بعيداً إلى الداخل، فيما ركض الضابط باتجاه الباب، وألصق أذنه هنيهة على الخشب، ثم فتحه بعنف واتجه إلى الخارج.

وضع أحد الجنديين ركبته على صدر أبي القاسم، وصوب فوهة الرشاش إلى رأسه، فيما أخذ أبراهام يراقب بقية المحتجزين بحذر، وما لبث الضابط أن عاد، وأغلق الباب وراءه بإحكام وهدوء، ثم أشار للجنديين فأجلسا أبا القاسم على المقعد، كان فمه ينزف خيطاً رفيعاً من الدم يتسرب في شعر لحيته الشائب، ولكنه بدا في حالة غير خطرة، وقال له الضابط بهدوء مبالغ به:

- لقد تعمدت ذلك أيها الثعلب العجوز..

وقال أبو القاسم بوهن:

- تعمدت ماذا يا سيدي؟

- لقد صرخت كي يهرب..

- من؟

- أنت الذي ستقول لنا من.. يا إلهي! كنت على وشك أن أعتقد أنك عجوز بريء.. أما الآن فقد تيقنت من كل شيء، لم أكن على خطأ حين شككت بهذه الباقة اللعينة..

- إنها باقة زهر يا سيدي. برقوق نيسان..

- ها!

وتناول الضابط عصاً قصيرة عن الطاولة، دقيقة كأنها من الخيزران، وأشار بها نحو زياد، ثم أخذ ينقلها كمؤشر، بين زياد وأبي القاسم. وأخيراً اتجه نحو زياد:

- أرأيت أيها الثرثار؟ أرأيت؟ كنت أنت الذي اقترحت أن نطلق سراح هذا الشيخ الخبيث لأنه يبدو بريئاً! ها! هذا الشغل شغلنا.. إنه يعتقد الآن أنه أتاح فرصة الفرار لأحدكم. كم هو مخطئ هذا العجوز المسكين! سننتزع اسمه مثلما ينتزع الضرس النتن.

وتنحنح زياد، وهو ما يزال واقفاً مكانه، وقال للضابط:

ـ هذا الشغل شغلكم يا سيدي، ولكن إذا سمحت لي أرجو ألا تقلق كثيراً، فقد يكون الشخص الذي مر أمام السلم هو الطفل طلال، صديق وليد، جاء يسأل عنه وخاف عندما سمع الجلبة فهرب.. ألم أقل لك يا سيدي قبل ذلك إن طلال ينتظر وليد ليلعب معه؟

وهز الضابط رأسه مرتاباً وهو يبتسم ابتسامة العارف الذي لا يسهل خداعه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- لم تكن الخطوة خطوة طفل..

ومرة أخرى، بمثل لمح البرق، شهد أبو القاسم في عينيّ زياد، وهما تعبران به، ومضة تشبه الرسالة.

الأعمى والأطرش

❖ ❖ ❖

سيقال فيما بعد أن ما حدث كان مستحيلاً، أما الآن فالأبعدون يقولون إنها مغامرة، وأنا أقول إنها الولادة. إن الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء إلا الأحلام الكبيرة، والمسألة مسألة وقت ليس غير. كذلك تبدأ القصص، وكذلك تنتهي. أن المعجزة ليست أكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس، ثم يولد على غير توقع من أحد ليضحي جزءاً من الأشياء، تبدو، ثمة، ناقصة دونه.

وقد كنت أسمع دائماً عن قبر الولي عبد العاطي وعن شجرته، ولكنني لم أكترث قط. لقد حجت أمي، حين كنت لا أعرف إلى أين تحملني وتمضي، إلى قبور كل الأولياء الصالحين، المزروعة في كل حي وعلى درب كل قرية، وسكبوا هناك على عيني من الزيت والدعاء ما يذوب جبلاً من الصمت والعناد، ولكن شيئاً لم يحدث، كأن العمى كان شيئاً مكتوباً علي منذ البدء، وإلى النهاية.

ومضت الآن سنوات لا حصر لها على تلك الأيام، حين كانت تضعني أمي على كتفها وتمضي ماشية كأنها تغوص في بحر لا قرار له، وكنت أحس المسافة على جبهتها حين تنزلق إليها كفي الصغيرة فألمس فوقها طوفاناً من تفصد العرق التعيس، ولكننا كنا نعود دائماً من قبور الأولياء كما كنا نذهب، تضيء أمي طريقنا بعينيها الباكيتين الراجيتين، وأتعرف أنا إلى مسافة الرحلة من العرق المتفصد على جبهتها...

ولقد يئست. أقول لك يا حمدان أنني يئست. ولو كنت جذع شجرة زيتون لتعبت، عصرت على عيني كل أعشاب الأرض، وتركت أكف الآلاف من الأتقياء والدجالين تمر فوقهما فلا تزحزح راقة واحدة من راقات العتم الأبدي الذي كان يوصد بين جفني بوابات ليل ضار، لا نهاية له، وذات يوم اكتشفت العبث كما تكتشف أنت المبصر شروق الشمس. أنت تعرف تلك اللحظات العجيبة التي تساوي العمر كله. كانت لحظة من ذلك الطراز الذي لا يقهر والتي تجيء وهي عازمة على عدم الارتداد. ومذ ذاك وأنا جالس، كما تراني، أرشو الظلام بالصوت، وأنسى. أنت يا حمدان ما زلت صغيراً، تتصور القدر ضربة صدفة لا تزحزحه إلا ضربة صدفة أخرى، وبعد أن مضى كل هذا العمر تقول لي أن أمضي إلى قبر الولي عبد

العاطي، حيث قام الكسحاء يركضون؛ والخرس ينطقون، والعواقر يلدن؟ أتريد أن أركب تلك الأرجوحة مرة أخرى في عمر واحد يا حمدان؟ أتريدني مرة أخرى أن أسير ذلك الأمل التافه المروع؟

قبر الولي وشجرته! واليوم تقول إنهم رأوا رأسه الوقور يتجه بالدعاء الصامت إلى السماء، معلقاً بين فرعي الشجرة. تقول إنه يبدو وكأنه نما هناك كما ينمو الثمر، وإنه يكاد يخاطب الناس. لقد سمعت هذه القصة في مكان آخر ذات يوم، وذهبت إلى هناك. لا، ليس مرة أخرى يا حمدان، ليس مرة أخرى، إن العمر الواحد لا يتسع لأكذوبتين كبيرتين.

ولا بد أن حمدان ابتسم، فأنا أحس ذلك بصورة غريبة اعتدتها منذ زمن لا ترقى له ذاكرتي، أكان يعرف أنني سأذهب؟ أكان يعرف عمق تلك اللعبة الهائلة التي نسميها الأمل المهيض الجناح؟ سمعت خطواته تمضي بعيداً عني إلى بوابة بيت النار، ليخبز دفعة جديدة من الخبز، ولكن مهما كان يحسب، فإنني أعرف أن الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء إلا الأحلام الكبيرة، وأن القصص تبدأ هكذا، وهكذا تنتهي. لقد قذفتني أقدار تعمل من وراء ظهورنا إلى هذا المكان، وأنا أتساءل بين الفينة والأخرى عما يستطيع الأعمى أن يفعل غير أن يبيع خبزاً؟ إن الرغيف وحده هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن

يُرى بالأصابع، تماماً مثلما يرُى بالعين. وحين يصل الأمر إلى الرغيف فإن أحداً لا يستطيع أن يخطئ، حتى الرجل الضرير الذي ولد، لسبب ما، دون بصر. فمنذ عشرين سنة وأنا جالس على هذا الكرسي أبيع خبزاً، ولا أذكر قط أنني أخطأت. إن أصابعي تتذوق الرغيف وتزنه وتتعرف إلى عمره وتثمن جودته، وهي تفعل ذلك كله كالعين والميزان معاً، فمما لا ريب فيه أن حياتنا مركبة على صورة فريدة، ولو لم يكن الأمر كذلك لما وجدت في هذا الكون كله متسعاً لي، أنزل فيه مثلما تنزل النبتة في الحوض، وأنمو هناك مع الأرغفة الساخنة، وأصوات الناس، يوماً بعد يوم.

ولكن أما آن لذلك كله أن يمضي إلى غير رجعة؟ أليس ثمة في هذا الكون كله، كله كله، رجل واحد، ميت واحد، شيء واحد، يعيد لهاتين العينين ضوءاً مرمرياً على الطريق، وليس من حق واحد دون الآخر؟ كان الصخب يملأني وأنا أسمع حمدان يقذف الأرغفة إلى بلاط الفرن، فتصدر عنها أصوات صفعات مكتومة، وعرفت، كما تعرف الأرض أن عشبة ما ستنمو هنا، أنني سأذهب.

وكنت في أعماقي أكره ذلك، ولكنني كنت أحس نفسي مربوطاً إليه بلا فكاك. وربما لذلك بالذات اعتزمت أن أمضي إلى هناك في الليل، ففي نهاية الأمر ليس ثمة فارق عندي، وكذلك يتعين على

الأولياء ألا يناموا.

وانتظرت مُضي الساعات، وأنا أحس التوقد يملأني. لقد اعتدت أن أنام في الفرن، وتركت الوقت يمضي حتى عم الصمت تماماً، فقمت.

◆ ◆ ◆

لم يكن هناك ما هو غير عادي، ذلك اليوم. كان يوماً من تلك الأيام التي عشتها سنوات لا حصر لها، ولكن الحقائق الكبيرة، كما يبدو، لا يحتاج مجيئها إلى مناسبات. كنت أناول رجلاً ما كيس الإعاشة، وكنت أقول:

- عيشة النكد هذه، أود لو...

وفجأة جاء ذلك الشيء الغامض، وانقلب العالم رأساً على عقب، وقلت لنفسي: يا ولد! أنت منذ عشرين سنة تقول ذلك ألف مرة في اليوم. وللتو، شعرت بشيء من الخجل، واقتحمني ذلك مثل شيء لا يرتد...

كنت أرى شفاههم تتحرك، ولكن الصوت كان يتكسر أمام جدار رهيب يسد أذني، ولذلك فإن أقوالهم لم تكن لتعنيني. اعتدت ذلك؟ لا شك. فجسور الصوت التي تمتد بين الإنسان والإنسان كانت عندي مقوضة تماماً، ولكن الإنسان يتعلم. وكما يعتاد الميت الموت، فإن الأطرش يتعود الصمم. أحياناً أقول: كما يعتاد الإنسان العيش، فإن الأصم يعتاد الصمت، ولكن المسألة الأكيدة هي أن الأشياء أكثر تعقيداً.

ذات يوم لابد لي من التفكير بهدوء. أقول لنفسي دائماً إن فرصة أن أفكر بهدوء لم تتح لي قط في العشرين سنة الماضية، فقد كانت عيشتي عيشة نكد حقاً.

إننا، حين نفقد واحدة من حواسنا، فإنها لا تضيع. كيف أشرح ذلك الإحساس الغامض؟ إن الصمم نوع من نوم الصوت. الحاسة ذاتها تظل في داخل الجسم كهدير طاقة حبيسة، ويكاد صوت استغاثتها أن يسمع، وهذا بالذات هو الشيء الذي اعتزمت، طوال عمري، أن أفكر فيه بهدوء.

أما الآن فليس ثمة إلا الطواف على سطوح الأشياء الساكنة. الدوران الصامت في قاع الساعات الرتيبة لحياة لا يعرف أحد كيف تسير ولا إلى أين. ومنذ عشرين سنة وأنا أجلس هنا، أناول الأكياس

لصفوف لا تنتهي من اللاجئين. منذ عشرين سنة يمتد أمام بصري هذا الصف الطويل من الرجال والنساء والأطفال، يتحركون أمامي كالأشباح. يتدافعون بلا صوت، وترتطم الصفائح التي يحملونها ببعضها دون أن يصدر عن ذلك الارتطام أي رنين، كأن العالم كله يغطس في حوض ماء زجاجي أمام عيني.

وشيئاً فشيئاً أخذت أدرك أن وجودي هنا لم يكن مصادفة، فمما لا ريب فيه أن هذه الأرتال التي لا تنتهي من البشر البائسين كانوا يكيلون لي سباباً لا يحتمل، فأنا - أمامهم - يد وكالة الغوث التي تمتد لهم بالطحين والسمن والفول. وقد يكون الطحين قليلاً أو فاسداً، وقد تكون حبوب الفول أقل من قشوره، ولكنني لم أكن لأسمع. كانت يداي تمتدان بالأكياس، وكنت أرى شفاههم تتحرك، ولكنني لم أكن لأسمع.

وعرفت، يوماً بعد يوم، أنهم وضعوني هنا قصداً، فلم يكن من الممكن لأي رجل آخر أن يحتمل ذلك الطوفان من الغضب الكسيح عشرين سنة متواصلة، يوماً وراء يوم، ويداً ممدودة وراء يد ممدودة. لقد كنت البوابة الحديدية لقصر المحسنين، على أقدامها يتكسر صوت الغضب. وأمامي كان ملايين اللاجئين يعومون داخل حوض زجاجي كالأسماك الصغيرة العاجزة، دون صوت.

أقول ملايين، لأنني، ربما لكوني لا أسمع الأصوات. قد تعودت أن أرى أرتال اللاجئين أمامي رتلاً واحداً مستمراً مثل نهر متجدد. لقد فقدت القدرة على التأكد من أن ما أراه ليس إلا تكراراً شهرياً لمشهد واحد عمره عشرون سنة، واكتسبت بالتدريج شعوراً بأنني أقف أمام صف لا نهاية له من البشر، يعبر أفراده واحداً واحداً من تحت ذراعي وبصري ولكنه لا ينتهي، لا ينتهي، لا ينتهي.

ولست أدري كيف تسلقت نغمة «عيشة النكد» إلى لساني من أعماق سحيقة، ربما لأنني كنت بصورة ما مسحوقاً، في مكان لا يكاد يُرى، بين جدار البوابة الحديدية لقصر المحسنين وبين الأمواج المتكسرة للأصوات الغاضبة القادمة من الخارج، أو ربما لأنني بصورة ما كنت فرداً في ذلك الرتل البائس من البشر، سقط بالصدفة أمامه، وصار بالصدفة أيضاً يتلقى أمواجه الصامتة ويمتصها دون أن يعي، وظللت هناك، شيئاً معلقاً في الهواء مثل غيمة.

وهكذا تبدأ القصص، ثم لا يعرف أحد كيف تنتهي: قرأت في الصباح أن الولي عبد العاطي، المدفون في الحقول القريبة من المدينة، قد بدأ يجترح المعجزات، وأن ثمة كسحاء عادوا من عنده يمشون، وإلى جانب ذلك الكلام نشروا صورة للقبر الطيني الواطئ، الذي لا يحوطه أي حاجز، والمنخفض أكثر مما اعتادت القبور أن

تكون خفيضة، ووراء كومة الطين تلك كانت ترتفع شجرة ذات جذع ثخين، عارية تماماً من أية ورقة، وبين فرعين في أعاليها، نبتت، مباشرة من الجذع، كتلة تشبه رأس الإنسان، مرفوعة قليلاً إلى الأعلى، كأنها تنظر إلى السماء، في وقت لا تكف فيه عن سماع أصوات الناس الذين يركعون إلى جانب القبر الواطئ...

واعتزمت على التو أن أمضي إلى الشيخ عبد العاطي، ورغم أنني لم أفكر قط طوال عمري بتصديق مثل هذه الأشياء، فلست أدري ما الذي حدث في تلك اللحظة بالذات. الآن أستطيع أن أقول إن الأمرين جاءا معاً، أن أكتشف نفسي، وأكتشف عبد العاطي، ولو جاء أحدهما قبل الآخر، أو بعده، لمرت الأمور فوق سطح أيامي مثلما انزلق آلاف من الأولياء إلى النسيان. ولكنهما جاءا معاً، مثل القفل والمفتاح، كنت أهوي بصخب من ذلك الكرسي الذي قعدت عليه عشرين سنة، وها أنذا أرى نتوءاً في جدار تلك الهوة المروعة.

وعبر عالمي الذي كان دائماً يسبح صامتاً في حوض ماء زجاجي، مضيت إلى قبر الولي عبد العاطي.



إنني أمد لك يدي، أيها الشيخ التقي الميت، من قاع هذا الصمت (وقاع تلك العتمة) التي لا يسبر غورها، يا حبيب الله، المعاد إلى هذه الأرض ثمرة متفجرة على الخشب. أخاطبك من وراء ظهر الحواس التي يخاطب بها الإنسان قدره المكتوب له. مد لي يدك يا عبد العاطي، يا عاطي، وانتشلني من هذا الصمت (والظلام). إنني أطلب منك الشفقة، أيها الولي، بعد أن رفضتها سنوات لا أذكر عددها. أركع قرب طينك المبتل، أيها الولي، وأقول: أنني تعبت. أصيح بين الجدران التي لا ترى، في عالمي المعتم (الأصم)، وأهز بكفي الأعمدة التي ترفع السماء، حيث تجلس مخبئاً أجوبتك، وأرجوك، أتوسل إليك، أبكي كل الدموع التي منحتها لي، وأعتصر إيماني حتى قراره المسكين. أطلب الفكاك من أسر الصمت (والظلام)، أسألك يا ملك الصمت (والظلام) أن ترمي صولجانك على وجهي وتمنحني حصتي من هذا العالم. أسألك أن تكف عن منحي للعالم أمثولة على سطوة الغيب التي لا تفسر، أو خذني إليك يا

عبد العاطي، علقني معك على ذلك الجذع العالي، لنسخر معاً من ذل هذا العالم المنكفئ على نفسه، العاجز المكبل المبصوق على وجهه. أخاطبك وحـدي، وجهاً لوجه، من أعماق هذه البرية المتوحشة المهجورة، وأتحداك أن تجترح معجزتك، أن تقول لي بأن كوم الطين القديم يستطيع أن يكون أكثر جدوى من الحياة النابضة داخل صدري، وفي عروق كفي المشرعتين أمام وجهك. أول مرة أجيء وأمضي إلى آخر مرة، وإذا كان ثمة في هذه الحياة من لا يستحق رؤيتها (ولا سماعها) فلتقل لي ذلك، هنا والآن، أيها الشيء الخرافي الذي يتدلى من السماء كخطاف. إنني أعلق عليك عمري كما يعلق القميص، وأعلق عليك إيماني وكل المعاني التي تعودت أن أستبدل بها الضوء (والصوت)، وانتظر تحت سقف العتمة مثلما تنتظر أنت تحت بلاطة الموت شموع المخدوعين.

- هل قلت شيئاً؟ إنني لا أسمع.

- لم أسمعك تأتي، فأنا رجل ضرير، كما ترى، جئت للولي أطلب البصر، وما زلت أنتظر.

- لا تتعب نفسك. إنني رجل أصم، لا أسمع، ربما أستطيع أن أفهم حركة من يديك أكثر.

فسألت:

- لماذا أنت هنا ؟

وجاء الصمت، الذي صار علي أن أعتاده منذ هذه اللحظة، وفجأة يصير همي وعبئي ودائرتي الفولاذية الإحكام، ولكنه الاختبار الذي لا يخطئ، فها نحن ذا غريبان مخلوعان عن العالم مثلما يخلع المارد قضيباً عن شجرة، يطل علينا عبد العاطي من فوق، وسيطنا الوحيد المجهول القدرة.

وقلت له:

- إنني رجل ضرير.

وأشرت بأصابعي نحو عينيّ، ثم قاطعت كفيّ مفروشتين أمامهما، مثلما ينغلق مصراعا باب، وسمعته يهمهم، ثم قال:

- فهمت.

وخيم الصمت أثقل مما كان، وبدا لي أطول مما توقعت، وجاءت كلماته من ثم مثل شيء يعبر مسرعاً دون أن يترك سوى صدى الحفيف:

- وأين يمكن لأصم وأعمى أن يلتقيا إلا هنا؟

ووضع كفه على كتفي، وخيل إلي أنها التصقت بي إلى الأبد. أين يمكن لأصم وأعمى أن يلتقيا إلا عند ضريح عبد العاطي؟ قلت لنفسي، ومع ذلك، فإن العالم صغير، ورفعت كفي نحو السماء

السوداء، وأشرت إلى فوق:

- هذا رأس عبد العاطي، وأنت لا تستطيع أن تراه، هو نفسه الذي رأيته في الصورة، هو نفسه الذي يجترح المعجزات، وهو الذي سيعيد إليك بصرك، ولكنك لا تراه الآن.

وضحك، فرن في البرية صوت يشبه إفراغ قربة ماء.

- ليس أجن منك إلا أنا نبحث في كوم الطين عن كنز مسروق، ورأس عبد العاطي يضحك علينا، لا أنت تراه ولا أنا أسمعه.

وخبط كفه على كتفي فبدونا صديقين عتيقين نتبادل حواسنا في صورة فريدة. ولا شك في أنني ضحكت عند ذاك، إذ إنه ضحك بدوره مرة أخرى بعد أن كان قد توقف، وسأل:

- أتريد أن تراه؟

ودار حولي:

- أعني أن تلمسه.

ومضى عني إلى قرب الشجرة ثم عاد إلي:

- لو رفعتك على كتفي فستصل بكفيك إليه، وهو معلق على الجذع، تستطيع أن تلمسه وتتعرف إليه، لا أحد هنا يرانا.

وصمت ثم مضى:

- ... ليرانا ويضحك علينا، هيا!

وشدني من كمي إلى الأمام، وجعلني أتحسس جذع الشجرة، ثم أخذ العكاز:

- وضعتُ عكازك على قبر عبد العاطي، سيحافظ عليه جيداً.

وضحك مرة أخرى مصدراً صوت قربة تفرغ من مائها، ويبدو أنه ركع على الأرض، إذ صرت أسمعه من تحت، وثبت إحدى قدمي على كتفه وأمسك بكلتا كفي:

- ارفع قدمك الأخرى.

تركت نعلي ينزلق وسحبت قدمي ببطء على ملمس من ظهره، وشعرت بعضلات كتفيه مشدودة ومفروشة تحت قميصه كأسنان مشط عريض، وبدأ يقف حين وجدت قدماي مكانهما على كتفيه، يرتج قليلاً تحت ثقلي، ولكن دون أن يبدو أنه سيفقد توازنه أبداً، وعندما انتصب تماماً ترك كفي فتمسكت بجذع الشجرة، وتركتهما ينطلقان إلى فوق كأنما من تلقائهما، يتحسسان الخشب الخشن وأسمع حفيفهما. كنت أرتجف قليلاً، ولست أدري إن كنت خائفاً أو متوجساً أو قلقاً، وربما كنت مستثاراً فقط.

- وجدته؟

كانت إحدى كفي قد وصلت إلى منبت الغصن الثخين المنطلق من الجذع، ومضيت معه ببطء.

- إلى يسارك قليلاً.

وفجأة اصطدمت يدي بشيء طري.

- هذا هو عبد العاطي، هل له أذنان؟

وضحك وهو واقف هناك.

لابد أن يكون ذلك الذي لمسته هو الرقبة. كان شيئاً طرياً ولكنه أكثر نشافاً من اللحم، شيئاً بين اللحم والثمر. هذه الذقن ملتصقة من جهة بالعنق، ومن جهة أخرى بخشب الغصن، وفوقها انبساط صغير، هنا ينبغي أن تكون الشفتان، ولكن لا يوجد أي شيء. ثمة نتوء يكاد يكون مستديراً إلى الأعلى. هذا الأنف، ثم تلمست الخدين اللذين كانا خشنين قليلاً، وببطء بحثت فوقهما عن العينين، ولكني لامست سقف المحجر. لا توجد عينان، وإلى فوق جاء نتوء الجبهة مندفعاً إلى الخارج أكثر من المعتاد، وتأتي الجبهة منبسطة عالية، وبدت لأصابعي وكأنها لن تنتهي، وعدت فوق استدارة الرأس أتحسس الصدغ، لا توجد أذنان. وكانت أصابعي تقول إنه رأس غريب وغير ودود. عنق ثخين قصير وذقن عريضة تكاد تكون مربعة، وأنف مستدير وبارز، وخدان قصيران وجبهة عالية ناتئة أكثر من المعتاد، وعدت أتحسسه من جديد، بجمع راحتي كله، أضغط عليه قليلاً، وأعتصر نداوته برفق. أي رأس هذا بلا عينين وبلا

فم وبلا أذنين؟

ومن تحت سمعته يقول:

- هل استغرقتما في الحديث؟ كدت أتعب... ماذا قال؟

وأخذ يضحك، وبدأت كتفاه تهتزان، ولست أدري كيف قلت له هامساً، دون أن أعي:

- إنه فطر، مجرد ثمرة فطر. فطر.

ثم أدركت أنه لا يسمع، فصحت بصوت عال:

- إنه فطر. فطر.

وسمعته يسأل:

- هل قلت شيئاً؟

وصحت بكل قدرتي:

- فطر.

وراق لي صوتي يرتد في البرية وكأنه صراخ آلاف من الناس المختبئين تحت الحجارة ووراء الأشجار:

- فطر. مجرد ثمرة فطر! ألا تسمع بعد؟ فطر.

واشتبكت الأصوات حتى ملأتني، قادمة من كل مكان تحت سقف العتمة الواطئ، وبدأ هو يغوص إلى تحت، وشعرت بأنني أهوي إلى القاع ببطء، ولكن بصورة نهائية وكنت ما زلت أقول:

فطر.. فطر! حين أنزلني عن كتفيه.

- ماذا تقول؟

وأخذت أصرخ نافضاً ذراعي حولي:

إنه فطر، رأس عبد العاطي مجرد ثمرة فطر طلعت هناك بالصدفة.

وشعرت به يقترب مني، وأدركت أنه لم يسمع، أبعدته من أمامي، وتقدمت إلى جذع الشجرة. كنت متيقناً أن الشجرة التي تنبت فطراً على غصنها تنبته أيضاً في كعب جذعها. بحثت بيدي في أسفل الجذع، ومن بين الحشائش النامية حوله عثرت على واحدة تشبه التفاحة الصغيرة، انتزعتها، ودفعتها إليه، مشيراً بيدي إلى فوق حيث كان الرأس مَا زال معلقاً.

وخيّم الصمت الثقيل مرة أخرى، وكما توقعت، جاءت ضحكته التي لا تنسى:

- هذا هو إذن!

وضحك مرة أخرى وأخذ يضرب على كتفي بكفه القوية.

- يسمونه أيضاً فقعاً؟ وسكت.

- سأظل كل عمري أضحك على نفسي كلما أتذكر أنني جئت أطلب من حبة فقع أن تعطيني أذنين أسمع بهما!

وتابع:

- وأنت أيضاً!

ثم لا شك أنه تطلع إلى فوق:

- هكذا تضحك علينا يا عبد العاطي؟

ومشى إلى الأمام قليلاً، ثم عاد وكأنه تذكر شيئاً، ناولني العكاز، وأمسك بيدي:

- هيا بنا نعود.

وبعد ثلاث خطوات فقط وقف مرة أخرى وقال:

- اسمي أبو قيس، ما اسمك؟

قلت له:

- عامر.

ولكنه لم يسمع، ولو سمع لما كان لذلك أية أهمية، ولما كان جديراً بأن يعني شيئاً، وقال:

- سأسميك عبد العاطي، مباركة لهذه الذكرى.

وضحك، ولم يسمعني أضحك، فيما أخذنا نخطو معاً في قلب العتمة والصمت.

❖ ❖ ❖

كان أول ما قاله حمدان حين جاء بفرش الخبز الأول، في الصباح:

- كنت أعرف جيداً أنك ستذهب لضريح الولي، وقد انتظرت في الخارج حتى رأيتك تمضي.

وسألته:

- لماذا لم تتعقبني إلى هناك؟

- لأنني أردتك أن تصفو وحدك مع الولي. لعل لدي من الخطايا ما يمنع وقوع المعجزة في دائرة قطرها ميل.

قلت، بما يشبه الهمس:

- ولم تقع أية معجزة.

- ربما لأنك لم تكن صافي النية، ذلك يحتاج إلى إيمان عميق وحقيقي، وإلى صبر ومثابرة.. أتحسب أن الأمر يحدث بهذه السرعة؟

وعددت خمسة أرغفة لزبون، وأنزلت الثمن في الدرج، ولم أقل شيئاً. أيمكن أن تكون ثمة نية أصفى من نية رجل يريد البصر

لعينيه؟ أيمكن أن يكون هناك إيمان أكثر عمقاً من إيمان رجل يتوق للخروج من العتمة؟ الصبر والمثابرة! أية عملة غير رائجة في حبس الليل الأبدي! لست أستطيع أن أكسب من الضوء والبصر أكثر من حصتي، وكل لحظة تمضي وأنا في هذا الليل الرهيب خسارة لا تعوض، ليست أبداً رصيداً للحظة آتية، ليست صبراً، ولكن كيف يمكن لحمدان أن يعرف؟

- قرأوا لي اليوم في الجريدة أن امرأة لم تنجب طوال عشرة أعوام، انفك عنها الرصد ببركة الولي عبد العاطي، وحملت. جاؤوا بها إلى الجريدة وصوروها، وها هي صورتها، لها جديلة طويلة، وهي تضحك.

قلت:

- خانت زوجها.

- أستغفر الله! أنت لا تطاق.

- شيخك ليس إلا كتلة من الفطر.

- أعوذ بالله... لا أريد أن أسمعك.

وعاد، يدب بخطواته الحافية، إلى الفرن ليخبز دفعة جديدة، فيما كنت أحس بأنني تغيرت بصورة لا أستطيع أن أتجاهلها لحظة واحدة. ما الذي حدث؟ شيء ما انكسر في أعماقي بلا ريب، وقد

حدث ذلك بسرعة، وكأنما على الرغم مني. ربما صارت الأمور أمامي أكثر قسوة، ولكنها بلا شك أكثر وضوحاً وصفاء. وكان ذلك يبتعث فيّ راحة غريبة ومفاجئة، وأخذت أتساءل إن كان الشيء ذاته قد حدث لأبي قيس، وكنت ما زلت أسمع ضحكته مثل قرقرة قربة ماء، وأحس كفه القوية تخبط على كتفي.

آه أيها الليل، يا ملك المعجزات الحقيقي! إن كان هناك ما هو معجز في قبر الطين فهو أنه يجتذب الخاسرين، وحوله يكتشفون شراكتهم في هذا العمر المحطم، ثم يمضون تاركينه وراء ظهورهم وكأنه لم يكن. أكان من الممكن، أبداً، أن أكتشف الولي على تلك الصورة الفريدة؟ أن نقتحمه معاً، من خلال العتم والصمت، ونسبر غوره حتى القرار؟ أكان حتماً علينا يا أبا قيس أن نزحف كأثواب مهترئة يجرها حبل من الغيب، لننشر ذلنا وكساحنا أمام فقاعة فطر؟

عددت ثلاثة أرغفة ووضعت ثمنها في الدرج، فخشّت مصدرة صليل قيد، ووراء ظهري اصطفقت أرغفة العجين على بلاط الفرن حين قذفها حمدان، وأخذت النار تهرج مثل ريح حبيسة.

كنت أحسب أن المعجزات تتدلى من السماء مثلما يتدلى خطاف، نعلق عليه أعمارنا كما تعلق القمصان، ولكن أصابعي ما

زالت تغوص في ذلك الخشب الطري الذي انبثق في غور العتمة، ثمرة من الطيش وقنديلاً مطفأً في ليالي البائسين المسحوقين المنكفئين على وجوههم واللاعقين جراحهم بالسكاكين. أما هي فقد خانت زوجها، وعلقت عارها على مشجب الولي النائم إلى الأبد تحت قبضة طين لم تعد تصلح إلا ليتكئ عليها عكاز رجل أعمى.

عددت رغيفين وأسقطت ثمنهما في الدرج، وخفت صوت النار، فيما أخذ حمدان يغسل كفيه.

وجاءت خطوات أبي قيس، وانتابني فرح صغير لأنني تعرفت إلى صوتها، وقال:

- كيف أنت اليوم يا عبد العاطي؟

وورائي كفت يدا حمدان عن الاغتسال هنيهة، فلا شك أن التسمية حيرته، وجاء الصمت مثلما يجيء الاستفهام، ليوقف تدفق الأمور لحظة، ويعيد ترتيبها من جديد.

- جئت أسألك إن كنت تريد الذهاب مرة أخرى الليلة؟

إنه يرفع صوته قليلاً فيبدو وكأنه يخاطب رجلاً يقف على بعد منه. وهززت رأسي محتاراً متسائلاً وأنا أرد عن وجهي ضحكة كانت تتسلقه من الداخل. وعاد يقول:

- نذهب هذه المرة لنعترف بفضله، لقد اجترح المعجزة.

عددت ستة أرغفة، وتركت ثمنها يسقط قطعة بطيئة وراء قطعة بطيئة في الدرج، ولا شك أن أبا قيس لم يكن ليسمع أصواتها وهي تصطدم بالقطع المعدنية الأخرى. وتصورت للحظة كيف ستبدو له وكأنها تسقط في حفرة بلا قرار، وتظل تهوي في الفراغ إلى الأبد: لقد اجترح المعجزة، وهي معجزة غريبة حقاً، وأدرت وجهي نحوه فهمس:

- سألت عنك اليوم.

كان شيء ما يولد في تلك المسافة المتوترة والممتدة بين عالمينا، وأنا أستشعر ذلك بصورة لا يمكن تفسيرها، ومضى:

- قالوا لي إنك من طِيرة حيفا.

وسكت قليلا:

- وأنا أيضاً من طيرة حيفا.

أسقطت قطعة النقد الأخيرة من بين أصابعي إلى الدرج، فصدر رنين كأنه صوت الدهشة "نلتقي بعد عشرين سنة!" وضحك، مصدراً ذلك الضجيج الصغير، والودود:

- اثنان من طيرة حيفا، يلتقيان بالصدفة حول حبة فقع! أليس ذلك معجزة يا عبد العاطي؟

❖ ❖ ❖

الحياة وإيقاعها الرتيب الذي له صوت التقوض، خطوات العبث تضرب في تيه مجنون إلى أبدي وأبدك وآباد الآخرين. الصمت الذي له مذاق البئر المهجورة. العتم الذي له صوت النواح. هذه الجسور التي لم توجد قط، لم تبنَ قط، لم تكن قط، بيني وبين العالم. إنني أنمو على الحائط الخارجي لهذا الكون، أنمو مثل طحلب مقرف يشمئز من نفسه ويبحث دائماً عن الزاوية وعن الظل. الصمت والعتم، الصخب والضوء، أي بديل لأي شيء؟ الخسارة عدوى، وكذلك الفجيعة، وحين أفتقد الضوء، يضحي الصوت عبئاً، وحين أغطس في الصمت الأبدي تصبح العينان هماً، ونحن إنما نتمدد تحت مطرقة العالم، بإيقاعها الذي له صوت التقوض. ألا يمكن أن يكون التاريخ كله حلم طفل أحمق يعبث بألعاب أكثر تعداداً من أن تستطيع طاقته استيعابها؟ يا للخاسرين حين يؤلبون على أنفسهم الكون بحثاً عن سلوى! حين يعلقون

أقدارهم على مخالب قدر لا يعرفون عنه شيئاً، كي يصير بوسعهم أن يتحملوا أنفسهم! يا لك يا عبد العاطي، الحي والميت، يا لكما من هذا العالم المجنون الذي لا يصدق! ترى كيف ركبت أيها الولي عبد العاطي زورق الناس التعساء وعلّمتهم أن العالم إنما يصنع من وراء ظهورهم؟ وأن عليهم انتظار أقدارهم مثلما ينتظر صف المصابين بالبرص شفاءهم أمام عيادة طبيب لم يوجد قط؟ وها أنتذا تعود على جذع شجرة مثلما تنبت الأسطورة في وهم المهزومين، تعطي تحت جبة التقوى للمرأة حظ أن تنتهك زوجها، وللدجال وراء دخان المعجزة حظ أن يتقدم متلصصاً إلى صف الأمام في طابور المنسيين!.. وقد خلعتُ عنك قداستك، سلبتك اسمك وأعطيته لرجل حي ينبض بالبؤس الذي لا تستطيع أنت شفاءه، وهو لم ينبت على جذع شجرة، ولكنه نبع مثلما يتفجر الصبح، مثلما يسقط الشهب مطفأ من المجهول ليصير شيئاً، وها أنذا جعلت عبد العاطي الولي عبد العاطي الرجل، أراه يمشي، وأحس أصابعه على كتفي، وأشمه كائناً يقف إلى جواري. أعدتك إنساناً رغماً عنك، خلعتك عن وهمي مثلما يخلع الطفل ضرسه، تخلصت منك، هزمتك، جعلتك قبضة من عتم الليل قذفت بها إلى وهج نار ضروس.. كسرتك من تحت قبضتي عصا كنت أتوكأ عليها،

وصرفت عمري آملاً منها أن تعطيني ما لا يعطى، ولست أريدك بعد: لا درعاً ولا زورقاً ولا وعداً. أخلعك عن شجرتك، عن عمرك، عن معجزاتك كما يسترد العاري قميصه المعلق على خطاف يتدلى من السماء... وأقول لك، لم يعد يوجد في جدار أوهامي مكان لمسمار جديد، أعلق عليه وعداً بالأصوات التي لم أسمعها قط، وقد خلقت لنفسي أذنين أسمع بهما العالم، أما أنت فلست إلا حبة فقع، سقطت بالصدفة في مستنقع الناس المهزومين، ورأوا فيها جزيرة طافية من وعود ليس بالوسع تلمسها باليد، ولا سماعها بالأذن، ولا رؤيتها بالعين والأصابع...

وأنا؟ لولا أبو قيس لما كان بوسعي أن أراك يا عبد العاطي. وإذا كان العمى فخ الأخاديع فكذلك البصر، ولقد تحسستك بالأصابع التي لا تخطئ، في تلك اللحظة الفريدة التي ترتطم فيها أشياء الواقع بأشياء الوهم، وإنني لأصفح عنك، وأغفر لك، فماذا بوسعي أن أفعل أكثر من أن أراك تغيب في الفضاء وتذوب مثلما يذوي حلم؟ وهماً كنت، ووهماً ولدت، وهماً انتهيت، وها أنا أسترد قدري وأحس ملمسه الثقيل على كتفي، مثلما كانت أمي - بلا ريب - تحس جسدي معلقاً على كتفها وهي تمضي بي، أنا قدرها الصغير والوحيد، لتضعني بين أيدي أوهام العالم كله، ولا تحصد إلا الخيبة،

ولا أحصد إلا العرق يتفصد عن جبهتها العالية...

ولولا أبو قيس لما عرفت، أنا الأعمى، كيف تلتقي أقدار البائسين تحت جبال الانتظار المهيض الجناح، لولاه لما استطعت أن أراك، يا عبد العاطي، ولولاي لما استطاع أن يسمعك... إنما أنت ثمرة طيش تنبت في رؤوس الكسحاء الذين يتعلمون، بجرعات البؤس المر، أن الحياة ليست سوى الانتظار، ولولا أننا تقاسمنا الخيبة، سمعاً وبصراً، لما ارتدت إلي طيرة حيفا، ولما التقيت فوق قبرك قدري، ولما عثرت تحت رأسك على شريكي في هذه المرارة التي يكاد طعمها أن يقتلني اختناقاً، ولقد قادني المبصرون خارج طيرة حيفا، وآن للعمي أن يتحركوا. إن الأشياء التي ترونها ليست هي، وذات يوم سأشرح لكم ذلك كله، وإلا لما كان بوسعكم أن تروا في ثمرة فطر نبياً صامتاً يجترح المعجزات، وأنا الأعمى الذي يعرف أن المعجزة إنما تجترح من القاع. فالثمرة هي معجزة الجذور الضاربة في رحم الأرض، الضاربة في غور هذا البدن المقدس للتراب الذي ليس له ملامح، وليس بوسع الفطر إلا أن ينزلق على الجذوع الجوفاء، أن يطل على الناس من فوق، وأن يخدعهم، ولكنه ليس المعجزة، وأنا الآن ربما لأول مرة أرى في الظلمة المحيطة بعيني حقيقة تتوهج بضوء لا قبل لأحد على احتماله، وأقبلك أيها

العمى، أتحداك، وأستطيع أن أسبر غورك، وإذا كان المبصرون يرون في الفطر نبياً وولياً يجترح المعجزات، فأنا الذي رأيت فيه، بأصابعي، ثمرة من الطيش تنزلق على سفح أحلامنا مثلما التفاهة تنمو وتنقرض، ولقد اطرحتك، أيها الولي، وأعطاني الرجل الأصم اسمك، ولم يكن بوسعك أن تدافع عن هذا الذي بقي لك، وتركتنا نمضي، ونحن حين مضينا إنما قتلناك ودفناك مرة أخرى، بلا ضوء وبلا صوت، وبالصمت الذي تستحقه!

◆ ◆ ◆

جاء حمدان فوقف أبو قيس وأخذ يستعد ليمضي:

- اسمع يا عبد العاطي، نستطيع أن نأخذ فأساً ومنكوشاً ونذهب الليلة إلى هناك.

قال حمدان:

- أعوذ بالله.

إلا إن أبا قيس لم يسمعه، فمضى يقول:

- لو قطعنا الشجرة، ودفنا رأس الولي، فلعلنا نسترد أبصارنا وأسماعنا.

وأخذ يضحك فيهز الطاولة أمامي، ويضرب بجمع كفه على ظهر حمدان الذي أخذ يدمدم حانقاً، وعاد أبو قيس يقول متجهاً بصوته إلي:

- إن ظهور الولي لم يجترح المعجزة، فلعل غيابه يفعل.. أتأتي معنا يا ولد؟

وكنت أعرف أن حمدان سيفقد صبره، فأخذ يتنهد بصوت مسموع، ثم قال:

- أنتما كافران تستحقان العمى والطرش، إذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته فسيحكم عليكما بالمحق، ويمسخكما.

قلت له:

- اذهب أنت، واطلب منه عقلاً، لعله يستجيب.

فعاد يقول:

- إذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته، أخذت على عاتقي إبلاغ الشرطة، إنني أنذركما، سأبلغ الشرطة.

قلت لنفسي: ها قد صار عند الولي جهاز شرطة!

وصاح أبو قيس بصوته الذي يشبه صوت رجل يتحدث من

نافذة قطار في محطة صاخبة:

- هذا الولد خائف أليس كذلك؟ ماذا كنت تقول يا ولد؟

ولكنه لم ينتظر الجواب، بل مضى بخطواته الثقيلة إلى خارج المخبز، وعندما وصل إلى الرصيف صاح:

- سأراك فيما بعد يا عبد العاطي، علينا أن نتحدث.

وخيم صمت تخشّ فيه رائحة الوقد في الفرن، وهو يغوص صوب الموت. وظل حمدان صامتاً ويفوح في صمته طنين الندم، مثلما يفوح كلما كان يشتط به الغيظ فيتحدث عن العمى الذي أصابني وكأنه عقاب. عددت ثلاثة أرغفة وأسقطت ثمنها في الدرج، واتجهت برأسي صوب حمدان أحثه على الكلام فقال:

- لماذا يسميك عبد العاطي؟

- لأنه لم يسمع اسمي.

- لا. إنه يتمسخر على الولي، هذا الكافر.

- ربما، عندنا في الطيرة حين يموت عزيز، حين يموت أب أو جد أو أخ، نعطي الوليد الجديد اسمه، وأبو قيس من الطيرة كما سمعته يقول.

- وما علاقة هذا بذاك؟

- لا شيء. ظننت ذلك..

وامتد الصمت مرة أخرى بيننا. هذه المرة مثل جسر، وليس مثل هوة، كان حمدان محتاراً قليلاً، ولكنه كان عازماً على سبر غور ذلك الموقف المعقد الذي أقحم نفسه فيه، فقال:

- هل تعتزمان حقاً تخريب قبر الولي وشجرته؟

وفجأة أخذت كفاي تنضحان عرقاً، ولأول مرة في حياتي لاحظت أن العرق يملأ راحتي يدي كلما تحدثت، أو تحدث أحد أمامي، عن ولي. لعله التوتر. لعله انبثاق أمل هش ليس بالوسع إمساكه باليد، لعلها الخيبة المحزنة. أخذت أفرك راحتي يدي على صدري، وقال حمدان:

- إن ليس من أجلك ومن أجل الناس فمن أجل المرحومة أمك، هذه المرأة الصالحة التي عرفت قبور جميع الأولياء. من أجلها انس تلك الفكرة الحمقاء، ما الذي تستفيده من تخريب قبر الولي وشجرته؟ ثم إن الشرطة...

- لقد عرفت المرحومة أمي قبور كل الأولياء صحيح، ولكنها لم تعرف فيها إلا الخيبة..

- ومع ذلك لم تفقد إيمانها، أنت قلت لي. قلت لي إنها كانت تحملك على كتفيها وتمشي، وكانت..

وكنت أنا أقيس المسافة بتلمس العرق الذي كان يتفصد من

جبهتها المجهدة، وأحياناً كانت تنزلق كفاي الصغيرتان فأحس وجهها كله ينضح بالعرق وبالدموع معاً، لو كان البؤس بذاراً لنبت في شقوق وجهها شوكه الضاري من فرط ما سقتها بالعرق وبالدموع، ولكنها لم تفقد إيمانها، هذا صحيح، لم تفقد إيمانها، وماتت فيه، وها هو ذا بالنسبة لي يموت معها.

رفعت راحتي يدي في وجه حمدان، وكانتا ما تزالان تنضحان عرقاً.

- اسمع يا حمدان. أتعرف لماذا تمتلئ راحتا يدي بالعرق كلما جاءت سيرة ولي؟ الآن عرفت، وكنت أجهل ذلك من قبل. وسأقول لك، لأن هذا العرق هو العرق الذي سقاهما من جبهة أمي، سنة وراء سنة، وميلاً وراء ميل، في طريق لا نهاية لها. كلما كانوا يقولون لها: «هناك قبر ولي» كانت تحملني، وكنت أتعلق بالعرق المنساح على وجهها ذهاباً وبالدموع البائسة الكسيحة ونحن في طريق الإياب. هاهما كفاي ينضحان عرقاً، ذلك العرق كلما سمعت اسم ولي. ذلك هو كل ما أورثته لي أمي المرحومة.

إلا إن حمدان لم يكن يكترث. كان كل ما يهمه هو أن يعرف فيما إذا كنا ننوي حقاً هدم قبر الولي وقطع شجرته، فعاد يسأل:

- هل ستذهب مع ذلك الأطرش الكريه؟

ولكنني لم أكن لأعرَف، لقد عرفت فقط أن شيئاً ما في داخلي، مثل جسر يستند عليه بناء، قد انكسر. وسوف يتقوض شيء ما في لحظة ما. وكان يتعين علي أن أترقب ذلك دون إيقافه - لأنني لا أريد - ودون الإسراع بحدوثه - لأنني لا أستطيع.

◆ ◆ ◆

وصلت إلى مكتبي في مركز توزيع الإعاشة في وكالة الغوث، كنت قد تأخرت، ولاحظت ذلك على الوجوه الجامدة لزملائي الذين كانوا بالانتظار. بدأت رائحة غبار الفول ورائحة السمن والحليب المجفف تختلط وسط بحيرة الصمت التي أعيش فيها.

جلست، ونظرت إلى طاولتي. ثمة شيء قد تغير في داخلي. كان أحد الموظفين يتحدث إلي، وكنت أشعر بذلك، إلا إنني اصطنعت عدم الانتباه. أحياناً يكون الصمم درعاً في وجه التفاهة.

قلت لنفسي: الله الله يا عبد العاطي! سقا الله أيام الطيرة..ثم وجدت أنه لا سبب يمنعني من رفع صوتي، فذلك طراز فريد من

الحوار، خصوصاً عندما يكون المرء مثلي الآن، غير مكترث بما سيقوله الآخرون.

قلت، غير متجه إلى أحد على وجه التعيين:

- ذهبت أمس إلى قبر الولي، وقلت له: يا سيدنا الولي أريد أن ترد لي سمعي، فأنا أطرش.. أتعرفون ماذا قال؟

وانتظرت قليلاً، لا شك أن واحداً منهم سأل: ماذا قال؟

فمضيت:

لم أسمع ما قال. فأنا أطرش! ها! ها! ها! ها! ها!

فتحت الدروج وأخرجت هذه القوائم الطويلة من الأسماء التي علكتها أصابعي دون صوت شهراً وراء شهر، وكانت الأسماء متشابهة تصطف مثلما تقف باصات الحكومة في الكراج. أحياناً نشطب اسماً ونقول: مات. يا حرام. في السماء لا يوزعون إعاشة. وكل يوم نسجل أسماء جديدة لأطفال يولدون، ونقول: بزر جديد، اللاجئون الذين أضاعوا التراب يحرثون ويزرعون الفراش. وهذا الصف الطويل من البشر واقف مثل طريق مسفلت متعرج يمتد من عام ٤٨ إلى عام ١٩٦٧، ليس فيه ثغرة واحدة، مثل الطرق الصحراوية في دول النفط، كلما انفتحت فيها حفرة جاؤوا بالزفت ورقعوها، كلما سقط واحد من الصف، ميتاً من السل أو فقر الدم أو القهر أو الشيخوخة أو

الهجرة أو السجن، جاؤوا بولد ولصقوه محله.

نظرت إلى الموظفين الذين شرعوا ينصرفون إلى عملهم، وقلت:

- اللاجئون مثل شارع طويل. طوله عشرون سنة.. ولكن هل تعرفون من الذي يمشي فوق هذا الطريق؟

نظروا إلي، وقال أحدهم شيئاً فضحكوا، وعدت أقول:

- تمشي سيارات وباصات. كادلاك وفولكسفاكن. بسكليتات وكنادر ومداحل، صنادل وحوافر، جنازير دبابات وكلاب.. خصوصاً يمشي على هذا الشارع الأولياء الصالحون، عبد العاطي مثلاً..

وضرب مصطفى على الطاولة وقال شيئاً لا شك أنه شتيمة، فقلت أهدئ خاطره:

- لا تزعل.. ذات يوم سأحضر عبد العاطي إلى هنا.. لا، لن يوزع الإعاشة معنا، لا. الأولياء لا يوزعون إعاشة، يوزعون وعوداً، نحن فقط نوزع إعاشة..

وعاد هو نفسه يرعد غضباً، كان يحمل قلماً عريض الرأس يستخدمه للشطب، فكتب على ورقة كبيرة: اخرس.

وضعت كفي مفروشة فوق رأسي وقلت له:

- حاضر يا سيد مصطفى، سأخرس. أنا أعرف أن الولي عبد

العاطي قريبك. حماك، أليس هو والد زينة؟

مزق الورقة حانقاً، وأخذ باقي الموظفين يبتسمون وينظرون إلى دفاترهم وكأنهم لم يلحظوا شيئاً، هم الذين شرحوا لي ما حدث وأفهموني إياه يوماً بعد يوم وإشارة وراء إشارة. زينة! لا شك أنه حلف يومها بكل الأولياء الصالحين.

جاءت المسكينة تصرخ و تبكي وتقول أنهم شطبوا اسمين في إعاشتها لأن إخبارية نقلها أحد جواسيس الوكالة تقول أنها تعمل خادمة وتحصّل مئة ليرة كل شهر. أرملة مشحرة مات زوجها تحت حمولة شاحنة حصى حين أفرغها السائق فوقه دون أن ينتبه. عندها أربعة أولاد، وجاءت تولول عند مصطفى، وتقول أنها وأولادها سيموتون جوعاً. كانت ما تزال شابة سمراء قوية. ووعد مصطفى أن يدبر المسألة.

وبعد أسبوع عادت زينة تبكي وتولول:

- وعدت أنك ستعيد الإعاشتين فأعدت إعاشة واحدة فقط. لقد أقسمت يومها...

وأخذت تبكي وتضرب رأسها على الحائط وقالت أنها خُدعت، وأخذت تردد كلمات باكية:

- أولادي. تعبي. عرضي! عرضي! عرضي! عرضي.

تعلقت هذه الكلمة في سقف المخزن، مثل ضوء اللوكس، وأخذت تمطر علينا هياجاً وعاراً في آن واحد، ولا شك أنها ما تزال معلقة هناك، وقد خفت إشعاعها مثلما يخفت ضوء اللوكس مع الوقت .. «عرضي»!

هكذا يا سيد مصطفى يتحول الخبز إلى فراش. أنت تريد الفراش وهي تريد الخبز. آه يا عكروت. لا شك أنك أقسمت لها يومها بكل أولياء الأرض، الآن وظفت نفسك عند الولي عبد العاطي. الآن صرت تدافع عن تلك الثمرة الطائشة من الفطر! ترى هل وعدتها بالزواج؟ سيد مصطفى. مصطفى أفندي؟

«اخرس». مكتوبة بالحبر الأسود العريض من القلم المخصص لشطب الأسماء، كأنما نستخدم هذا القلم العريض لنطمئن إلى أن الإسم الذي نشطبه إنما انشطب كلياً وتماماً فلا تقوم له قائمة من بعد. من يدري؟ لعل مديرية الوكالة تحسب أن اللاجئين يولدون من جديد، فلماذا يعثرون على اسمائهم بسهولة؟ إننا نكتب الأسماء الجديدة بأقلام حبر رفيعة، خجولة، فلماذا نشطبها بذلك القلم الأسود الثخين الذي يستخدمونه لكتابة الأسماء على أكياس الخيش.

حملت القوائم ووقفت. نظرت إلى الموظفين وقلت:

– لنبدأ بتوزيع إعاشة اليوم.

مضينا في صف إلى المخزن يتقدمنا مصطفى الذي يحتفظ بالمفاتيح، ووقف كل واحد في مكانه. أنا قرب الباب المطلّ إلى الخارج.

فتحت الباب فأخذت الأكف تلوح بدفاتر الإعاشة الحمراء وتتدافع وترتطم الأواني ببعضها فلا تصدر صوتاً. استغرقت في العمل، وكانت يداي تنشطان: من البراميل إلى الأكياس إلى الميزان إلى الدفاتر. فجأة حدث شيء غريب، فقد اكتشفت لأول مرة أنني إنما أقرأ شفاه الناس الذين أمامي. أفهم ماذا يقولون: عدس. كوكوس. حليب. طحين. فول.. آه يا عبد العاطي! أتراك اجترحت المعجزة؟ هراء، طق حنك، ولكن الحقيقة هي أنني كنت أقرأ شفاه الناس، وأعرف ماذا يطلبون.. ما الذي حدث؟ عملتها يا عبد العاطي يا ولي؟ مستحيل، فأنا ما زلت مصراً على أن أحمل الفأس والمنكوش وأذهب مع عبد العاطي لأهدم قبر الولي وأقطع شجرته..

وظلت الأفواه تقول لعيني، طوال ذلك اليوم: عدس، حليب، فول، كوكوس، تمر، طحين...



كنا على وشك أن نغلق المخبز، أنا وحمدان، حين سمعت خطوات أبي قيس على الرصيف، دخل فسلّم وأخذ يتحسس الأرغفة ويقلبها، ثم اختار واحداً وناولني ثمنه وأخذ يلفه بورقة. دفعت نحوه كرسياً واطئاً من القش فجلس، وجاء حمدان من الداخل، وقال:

- ها قد جاء ذلك الشقي الكافر.. هل تريدان الذهاب إلى هناك؟

ولم يسمع أبو قيس شيئاً، إلا إنه قال لي:

- يبدو أن هذا الولد كثير الثرثرة.

ضحكت وهززت رأسي موافقاً، وأخذ حمدان يدمدم حانقاً، فقال أبو قيس:

- لا تضيع وقتك. لماذا لا تذهب وتشتري لنا نص وقية جبنة؟

قال حمدان:

- لا. لن أتركك هنا وحدك مع عامر. لن أسمح لكما بالذهاب إلى قبر الولي. سأظل هنا، وسأظل أراقبكما.

وجاء الصمت، الذي صرت معتاداً عليه الآن، والذي هو صوت الانتظار، بكل ما فيه من ترقب يحبل بالجديد. صوت الولادة وهي تتدفق بسكون من قلب الفراغ، مثل الارتطام الساكن لغيمتين متفقتين على موعد المطر..

وبهدوء، تماماً مثلما يشرع المطر، قال أبو قيس:

- أتعرف يا عبد العاطي؟ ظننت اليوم أن الولي قام بالمعجزة.

قلت لنفسي: أمس قام بالمعجزة فعرّف واحداً من الطيرة على واحد من الطيرة بعد عشرين سنة، اليوم قلت لنفسي: ها هو ذا جعلني أسمع على صورة فريدة، لقد اكتشفت فجأة أنني أفهم ما يقوله الناس وذلك بقراءة حركة شفاههم. ولكن أتدري؟ هراء. طق حنك، في أخر النهار عرفت أنني لا أستطيع أن أقرأ من حركات الشفاه إلا تلك الكلمات المحدودة: فول. عدس. حليب. كوكوس. طحين. تمر وغير ذلك من بضائع الإعاشة.. أما غيرها فلا شيء.. أتعرف لماذا؟ لأن هذا هو كل ما تعلمت أن أسمعه من عشرين سنة. كل يوم كل يوم كل يوم. لا معجزة ولا من يجترحونها. ذلك شيء مثل أن أتعرّف في وجه الإنسان على البكاء، ذلك لا يحتاج إلى

سمع، لا هو ولا تلك الكلمات المعولة.. يا لعفريت البؤس كم هو ذكي! مثلما تتعرف أصابعك على الرغيف، أنت الأعمى. دونما حاجة إلى بصر، أتعرّف أنا على تلك الكلمات التي ليست لغة، والتي ترتسم على الوجه مثل الحزن، أو النعاس، أو الخيبة...

وعاد الصمت، صوت الانتظار هذا الذي أحسه الآن أكثر من أي وقت مضى مترعاً حتى حافته بولادة غامضة، على وشك أن تنبثق في أي لحظة. إن هذا العالم يدور بسرعة مجنونة وتختلط أشياؤه في فوضى مروعة ما تلبث أن تنداح في حقائق متسقة. هذه اللغة التي يتحدث عنها أبو قيس، لغة اللاجئين، لغة البؤس التي لا يسمعها، ولكنه يراها، لغة البؤس التي لا أراها، ولكنني أسمعها، وغالباً أحسها، تارة في رغيف الخبز، وتارة حين تتفصد راحتا يدي بالعرق والدموع. اللغة التي لا يستطيع عبد العاطي لا سماعها ولا رؤيتها.

وأخذ أبو قيس يضرب رغيف الخبز الذي يحمله على حافة الطاولة برفق، غارقاً في أفكاره، ثم مضى يقول:

- اللغة عادة، وقد تعودت أنا لغة الإعاشة، وأنت تعودت لغة بيع الخبز. إنني أفهم لغة زينة جيداً، ولغة مصطفى، ولغة شارع الأسفلت الذي تسير عليه الأحذية والمداحل والدبابات والكلاب،

ترى لو تعودت لغة أخرى، أما كنت أفهمها؟ أعني لو أنني عشت في جو آخر، أما كان لدي لغة أخرى؟

ووقف ثم راح يتمشى في الممر الضيق الذي يفصل الفرن عن دكان البيع، وجاء حمدان فوضع يده على كتفي، وقال هامساً:

- لا تترك هذا الشيطان يضللك. إترك الولي بحاله، إن المعجزات التي اجترحها تكاد لا تحصى، سيقطعك الناس إرباً.

قلت له:

- هل ستذهب إليه الليلة؟ لماذا لا تذهب يا حمدان؟ أطلب منه أن يعطيك قميصاً، أن يعطيك حذاء تدخل به إلى العيد. أن يعطيك أباً أنت الذي عشت عمرك بلا أب. فإذا أعطاك سمعنا وصيتك، وإذا لم يعطك تنضم إلينا.

- أنتما كافران متساويان. هل يعني ذلك أنك مصرّ على الذهاب لتخريب قبر الولي وقطع شجرته؟

- لست أدري، اسأله.

- ولكنه لا يسمع.

- اكتب له السؤال..

- لا أعرف.

- إذن اسكت.

- لا. أريدك أنت أن تجيب، هل ستذهب؟

أحسست بصدري يمتلئ فجأة بالهواء، فتنهدت مرة ومرتين. كان أبو قيس قد كف عن التجوال الحائر فجلس على الكرسي الواطئ، ومضى يزداد غوصاً في صمته الفريد.

- هل ستفهم؟ هل ستفهم لو قلت لك؟ إذن اسمع: لا حاجة بعد لتخريب قبر الولي وقطع شجرته، ذلك عمل لا يزيد ولا ينقص شيئاً بالنسبة لي. الولي عبد العاطي مات، انتهى، خلص، فإذا ذهبت ونكشت قبره وأحرقت شجرته فذلك مجرد احتفال، مجرد احتفال، وليس هذا هو المهم، هل فهمت؟

وفجأة قال أبو قيس كمن يكمل حديثاً بينه وبين نفسه:

- وماذا سنفعل الآن يا عبد العاطي؟

وأحسست بعينيه تفترسان وجهي، مثلما أشعر أحياناً بأذني مشرعتين أمام أدنى طنين، مثل فخ جيد الإخفاء تحت الحشائش، إلا إنني لم أقل شيئاً، كانت كل الأبواب في رأسي مغلقة، ولم ينتظر أبو قيس طويلاً، فدمدم ساخراً:

- تصبح الأمور عسيرة حين يموت الأولياء.

ومضى يضحك، فأتذكر تلك الليلة الغريبة في البرية، حين كان صوته الضاحك يشبه صوت إفراغ قربة ماء، يرتد صداه من خلف

الأشجار وتحت الحجارة وأعماق التراب. تصبح الأمور عسيرة حين يموت الأولياء. إنه ينظر الآن، بلا ريب، نحو حمدان. أجل، تصبح الأمور عسيرة حين يموت الأولياء؟ ولكن لابد منها. ها هم الرجال يرفعون أعمارهم عن الخطاف المتدلي من السماء ويمضون، يتلمسون بأصابعهم رأس الولي المتفجر ثمرة على شجرة، ويعتصرون نداوته فيجدونه ثمرة فقع بلا وعود. يلتقي المهزومون المكسورون المحزونون فوق البلاطة التي تنام تحتها المعجزة، فلا يرون تحتها إلا جثة الموت الجبان. تصبح الأمور عسيرة حين يموت الأولياء، تنهار جسور الوهم وتتعفن الوعود، ويتعين عليك أن تحمل قدرك.

◆ ◆ ◆

أمضيت طوال الليلة التالية أحلم حلماً قصيراً، أصحو من أعماقه مذعوراً، ولكنه ما يلبث أن يعود فيتكرر وكأنه إعادة عرض لشريط مصور: كنت أرى نفسي متجهاً إلى مكتبي في وكالة الغوث، وفجأة أجدني واقفاً فوق أكياس الطحين وباب المخزن مشقوق شقاً رفيعاً

يدخل منه شعاع الشمس مثل نصل سكين، وعبر هذا الشق أرى أكوام اللاجئين تغلي على امتداد البصر، وأشرع وسط طنين لا مثيل له بإلقاء خطاب، ويختلط الأمر فإذا بي أنظر من شق الباب إلى زينة واقفة هناك تخطب وأنا أحاول أن أفهم صوتها الغاضب، إلا إنها تنزل بين ذراعي مصطفى، وأعود فأخطب وقد استبد بي غضب يملأه الألم، وتتحرك الجموع وتحطم باب المخزن، وفجأة تمتلئ أذناي بأصوات ضجيج لا قبل لي باحتمالها، وأرى عبد العاطي وسط السيل يتدافع بالأكتاف، وأصحو.

وكنت أعرف أن الذهاب إلى مكتبي في الوكالة، صباح اليوم التالي، سيكون مؤلماً وأن شيئاً ما قد حدث في حياتي، لا أستطيع تبينه على وجه الدقة. لقد حطمت شيئاً وليس لدي ما أستعيض به. كنت أعرف أنني لن أطيق، بعد، العمل في المكان الذي وضعوني فيه عشرين سنة، ولكنني لم أكن لأعرف أين يتعين عليّ أن أتجه، ليست الحياة إلا سلسلة تأخذ فيها الحلقة بيد الحلقة، فإذا اكتشفت ولياً أدخلت العالم تحت جبته، وإذا قتلته أخرجت العالم كله من هناك، ولكن إلى أين؟

وأخذت أتذكر الشيخ حسنين، إمام الجامع في طيرة حيفا، فقد كان جارنا، وظل يشدد علي، وعلى أبي، حتى صرت أذهب إلى

الجامع، ولكنني كنت أخفق في سماع خطابه كل يوم جمعة. وذات يوم قلت له وهو يأخذ بيدي خارج المسجد:

- لو كان الله يريدني أن أسمع خطبتك لأعطاني أذنين.

ولفرط دهشتي ضحك الشيخ حسنين ضحكاً شديداً، وصار يتراخى في تشديده علي حتى تركت تقريباً عادة الذهاب إلى المسجد، ولكنني صرت أكثر اعتماداً على أبي، وقد لاحظ الجميع ذلك إلى حد كان يبعث في الألم، وقد انضم الشيخ حسنين إلى المجاهدين في الطيرة، وكان منظر عمامته فوق البدلة الكاكية طريفاً، وبدت البندقية على كتفه وكأنها خدعة دينية لا أكثر، ولكنه في الحقيقة كان مقاتلاً من الدرجة الأولى، وكان دوره مهماً إلى أن استشهد ذات ليل، وأخفق الرجال في العثور على جثته من فرط ما كان متقدماً على خطوط البلدة.

تذكرت الشيخ حسنين لأنه عندما مات شعرت تقريباً بما أشعر به الآن. ذلك الفراغ المروع الذي يضعك على عتبة قرار جبان، وقد فعلت، إذ إنني أخذت منذ ذلك الوقت أنتظر المعجزة، وحتى عندما وقعت الواقعة كنت أشعر في أعماقي بأن معجزة ما قد أنقذتني. وقد حدث الأمر كله في لحظة صغيرة لا تكاد ذاكرتي تحصرها: يبدو أنني لم أسمع أصوات الانفجارات ونحن نجلس أمام

بيتنا في الطيرة ذلك المساء، واندفع والدي وشقيقي وأمي عبر الطريق إلى حيث يقوم الملجأ المرتجل، وسقطت عليهم القنبلة وهم في منتصف المسافة. أما أنا فكنت ما أزال جالساً في مكاني، وأنقذني الصمم، وقلت لنفسي سنة وراء الأخرى إن المعجزة قد وقعت، وإنني أدين بحياتي لعلة طالما شكوت منها.

الآن لا فرار. لعل وجود عبد العاطي قد دفع القرار إلى نهايته، فتمزق كل شيء دفعة واحدة، وليس ثمة الآن إلا ذلك المفترق بين طريق الحياة وطريق الموت، ذلك المفترق الذي تميزه فجأة، والذي تكتشف أنك أمضيت عمرك تراوح أمامه دون أن تتخذ قرارك، ليس لأنك لا تريد، ولكن لأنك غافل عن ضرورة ذلك.

القرار. القرار. القرار. ماذا أستطيع أنا وعبد العاطي أن نفعل في وجه هذا العالم؟ هل بقي لدينا، بعد، متسع من الوقت لنفعل شيئاً؟ أم تراه بقي متسع من الوقت لكي نعود فنمزق صفحة عبد العاطي الولي من حياتنا وننساها ونعود إلى أمكنتنا وكأن الزلزال لم يقع؟

ولكن قدمي ساقتاني، دون أن أعي، إلى مكتبي في وكالة الغوث. دخلت وسلّمت وجلست إلى طاولتي. أخرجت القوائم، وراحت الأسماء المتشابهة تمتد أمام بصري مثل طريق لا نهاية له، وبدت لي فجأة سلسلة من القيود التي تكبلني وتحول دوني ودون أن أتحرك.

خطر لي أن استل القلم الأسود العريض وأمضي أشطبها واحداً وراء الآخر، وأختار أسماء بعينها فأشطبها، ولكني استبعدت ذلك، وأخذت أنظر إلى المخزن عبر الباب نصف المفتوح، حيث كنت أقف في حلمي، وأخطب بصوت مجلجل، وخيل إلي أن الباب الكبير للمخزن سيتحطم تحت قبضة الجموع في لحظة واحـدة، وأن اللاجئين سيتقدمون صفاً وراء صف، مثل سيل لا يكف عن الهدير، وأن أصواتهم الغاضبة ستحطم، فيما ستحطمه، بوابات الصمت المغلقة في أذني. سيحدث ذلك، هذه اللحظة، هذه اللحظة. وقفت واستندت على الطاولة وأخذت أحدق ببوابة المخزن. هذه اللحظة، الدوي سيتفجر الآن. الآن. فجأة استبدت بي استثارة لم أعشها في حياتي، وشعرت أنني ارتجف بلا هوادة، وكادت عيناي تنفجران وأنا أصوب نظري إلى ذلك الباب المغلق، كأنه باب الصمم، باب الموت، باب القدر الذي لا يهزم، والذي يوشك في اللحظة التالية أن يتقوض.

كنت في قرارة نفسي متيقناً من أنه سيتحطم أمام الأكتاف المتكدسة وراءه لصف من اللاجئين طوله عشرون سنة مرّة. سيتحطم في أية لحظة. فجأة ضاع ذلك الحد الذي يفصل بين الحلم وبين الحقيقة وامتزج كل شيء، ورأيت بعين الحقيقة ما رأيته ليلة أمس مئة مرة بعين الحلم، أنهم يجمعون إرادتهم في أكتافهم وراء

هذا الباب يكورون قبضاتهم فتصبح مثل الصخور المحيطة بصفد، ويستعدون. هذه اللحظة. هذه اللحظة. الآن. الآن. الآن..

ولكن غور الصمت أصبح أشد عمقاً، وظل، كما كان دائماً، يخيم على كل شيء. نظرت حوالي ورأيت في عيون الموظفين نظرات الدهشة المليئة بالخشية تنصب عليّ من كل جانب، وكان مصطفى يبتسم ابتسامة لا تكاد ترى. تنهدت، وفككت التوتر من قبضتي يدي اللتين كانتا ما تزالان مكورتين فوق خشب الطاولة، وعدت فجلست.

بذلت جهداً كي لا أنظر مرة أخرى إلى ذلك الباب الكبير المغلق، الصامت، الذي يشبه شاهدة ضريح. ثم قلت لنفسي: ها أنت مرة أخرى يا أبا قيس تتوقع معجزة. لا. إن الأمور يا حبيبي لا تحدث كذلك.. الله عليك شو خفيف.

◆ ◆ ◆

نمت في غرفة الفرن، فوق فرش الخبز، وقبل أن أغفو سمعت خطوات حمدان الخافتة تتجه إلى الباب، حيث مد فراشه ونام. قلت لنفسي: إنه ينام أمام الباب كي يصحو إذا حاولت الخروج. لقد

وجد لنفسه أخيراً عملاً مفيداً يرضي ضميره. عيّن نفسه دركياً لحراسة الولي! آه كم يحتوي كيس البؤس من الأخاديع! إنه يشبه نبعاً لا تنضب مياهه..

وبدا لي حمدان بجسده الضئيل وطيبته وتصميمه سداً يشبه جداراً من الصخر، يقف أمامي و أمام أبي قيس، وأنه على صغره، يحجب من أمام أعيننا امتداد الطريق الذي ضيعناه، أخذت أسمع تنفسه الثقيل، تنفس رجل اعتصر عضلاته طوال النهار بالعمل المضني، وهو يغطس في عالم النوم كما يغطس رجل في العمى، أو رجل في الصمم، وكان نومه هناك تمثيلاً طريفاً لواقع أحسه إحساساً صميمياً: فقد كان فعلاً يغلق الباب بجسده القوي، ويعرقل أمامي طريق الخروج، لو شئت أن أخرج، وبدا لي أن اختياره العفوي هذا ليس في الحقيقة إلا تجسيداً عابراً لدوره في حياتي.

لم أكن أعرف من حمدان إلا صوته، وهو صوت فتى عقد عزمه وقر رأيه وملأ نفسه بقناعات صغيرة، ولكنها متراكمة في كل جسده. كانت زحزحته مستحيلة، وكان الحوار معه أكثر صعوبة. ففي عالم مرتب على تلك الصورة التي في رأس حمدان يستحيل العبث بالأشياء الموضوعة، منذ الولادة، على رفوف الذاكرة، نائمة تحت الغبار والقبول والاستسلام الكلي.

ولست أعرف على وجه التحديد من أين أتى، وما الذي انتهى به إلى هذا الفرن. وكان هو ضنيناً في الحديث عن ماضيه، ولكنني علمت، مثلما يجمع الإنسان شظايا صحن زجاجي محطم، أنه لم يذهب إلى المدرسة إلا أياماً قليلة، وقد تزوجت أمه بعد شهور من ذهاب والده إلى السجن، وأذاقه زوج أمه مر العيش، فقد كان فقيراً، وفظاً وشرهاً، وحين وجد في طريقه طفلاً مستسلماً مستعداً للقبول، أخذت شراسته تشتد ضراوة.

وقد لجأ إلى أماكن عديدة إلى أن انتهى به الأمر إلى هذا الفرن منذ عشر سنوات تقريباً. ونحن ما زلنا منذ ذاك نعيش معاً، ونشكل ثنائياً غريباً فاقت شهرته حدود الحي الذي يقوم فيه الفرن. كان جسده قد أضحى قوياً بلا حدود، وصار مضرباً للمثل في البؤس والشدة، إلا إنه لم يستخدم قط تلك القوة الهائلة النائمة في ساعديه وأكتافه لتحقيق أي نوع من أنواع العنف ضد أي كان. لقد كان فعلاً على قناعة عميقة بأن أمور هذا العالم لا تحتاج إلى تقويم، وأن القوة في جسد الرجل ليست إلا رفاهاً إضافياً يمكن الاستغناء عنه، وأنه إذا ما اعترضت حياة الإنسان معضلة ما فلا سبيل لزحزحتها إلا بالمعجزة، وليس بقوة العناد، أو بعناد القوة.

ومنذ عشر سنوات وأنا أنظر إلى العالم بعيني حمدان، ومع

ذلك فإنني لم أستطع أن أرى شيئاً حقاً، كان العالم بالنسبة لعينيه منبسطاً كأنه مرسوم على بلاطة. وكان يرى الأشياء والناس على صورة فريدة من البساطة والآلية، وفي أحيان كثيرة كانت رؤيته تشكل في ذهني جداراً أو باباً بيني وبين الحقيقة في شكلها الأكثر صفاء، تماماً كما هو نائم الآن أمام الباب.

ومنذ أيام قليلة وأنا أحس ذلك أكثر من أي وقت مضى، وأكاد أرى في حمدان قيداً يزداد ثقله، ومع ذلك لا غنى عنه بالنسبة لي، أنا الذي أدرك كيف تحول خلال عشر سنوات إلى جزء لا يتفكك من حواسي، وتحولت في هذه السنوات العشر إلى جزء ثابت في عالمه، وإلى رف كبير داخل رأسه، يضع عليه أشياء الذاكرة، وصور العالم المدفونة تحت غبار لا يريد مسه.



كان يوم جمعة، عطلتي من العمل في مكتب توزيع الإعاشة في وكالة الغوث. ومع ذلك صحوت باكراً على غير عادتي في أيام العطل، ولما شعرت بأنني نهب للحيرة والضجر والأفكار المتناقضة، مضيت أزور عبد العاطي.

وقد وصلت إلى الرصيف المقابل للفرن في ساعة مبكرة جداً، وكان النهار ما زال محتفظاً بطعم النوم، وغير قادر بعد على أن يكون حقيقياً تماماً، كأنه لم يسحب نفسه بصورة كاملة من عالم الأحلام الصامت. ولعل ذلك بالذات ما جعلني أرى ما رأيت على تلك الصورة المدهشة: فقد كنت أعتزم عبور الشارع إلى الفرن عندما لاح لي عبد العاطي واقفاً قرب الواجهة. كان ما يزال لابساً ثوبه الليلي الأبيض، وكان يزن خبزاً لزبون لم يكن بوسعي أن أراه من مكاني، وهكذا فقد كان واقفاً بطول قامته وذراعه أمامه ترفع عصا الميزان النحاسي ذي الكفتين المربوطتين إليها بالسلاسل وهو يقوم بوزن الخبز، وقد وضع تحت إبط ذراعه الأخرى عدة أرغفة إضافية، فيما مضى يتجه بعينيه الضريرتين إلى الأمام مثلما يفعل العميان حينما ينصرفون إلى تركيز وعي حواسهم الأخرى.

كان الصباح الممتلئ بجو الليل يخيم على الطريق، والفرن من الداخل ما يزال مظلماً تقريباً، وهكذا فقد بدأ عبد العاطي الواقف

قرب الباب بثوبه الأبيض الطويل وكأنه يتوهج بنور خاص، يمد ذراعه بخط مستقيم وهو يرفع حلقة الميزان ويصوب رأسه إلى الأمام كأنه ينظر إلى آفاق لا يراها غيره، ويضع تحت إبطه عدة أرغفة، فأراه مثل تمثال من الرخام المتوقد بالحياة.

وقفت أنظر إليه عبر الطريق، ولا ريب أنني كنت مأخوذا تماماً، إذ لاحظت أن أحد المارين أخذ يحدق إلي، ثم نظر إلى حيث كنت أنظر، إلا إنه لم يجد على باب ذلك الفرن ما يستحق الانتباه، فعاد ينظر إلي مدهوشاً، وقال شيئاً ثم مضى.

عبرت الشارع وكأنني مسحوب بخيوط غير مرئية إلى حيث يقف عبد العاطي، وحين وصلت قربه شاهدت الزبون الذي كان يزن الخبز له، كان ولداً صغيراً حجبه أحد أعمدة الواجهة عن نظري حين كنت على الطرف الآخر من الطريق، أما عبد العاطي فقد كان يوشك أن يضع الميزان جانباً، وظننت أنه لم يشعر بمقدمي، إذ وقفت بلا حراك أشرب بعيني المزيد من ذلك المشهد الذي ظننت أنه غير حقيقي تماماً.

في اللحظة التالية وجه عبد العاطي رأسه نحوي وابتسم، فعرفت أنه أحس بمقدمي، فقلت له:

- لا تتحرك. ابق واقفاً لحظة واحدة أخرى... إنك تبدو مثل

تمثال قديم.. تمثال العدالة. تلك المرأة التي تحمل ميزاناً وسيفاً، ويبدو لي رغيف الخبز تحت إبطك أكثر معنى من ذلك السيف الذي تحمله امرأة معصوبة العينين.

ونظر الطفل نحوي، ثم عاد ينظر إلى عبد العاطي الذي ظل واقفاً دون حراك ودون أن يرتسم على وجهه أي تعبير، ولم أسمع ما قاله الطفل لعبد العاطي الذي رد عليه مبتسماً، ثم جاء الولد يدب من الداخل ويتصبب العرق على وجهه من حرارة الوقد الذي كان يحشوه في بيت النار. كان عارياً فوق سرواله الأبيض المتسخ، وكانت عضلات صدره وكتفيه تبدو متسقة وجميلة وقوية دون حدود. نظر إلي بامتعاض، ولم أستطع معرفة ما إذا كان قد حيا، أو شتم، فظللت صامتاً.

كان يتجه إلى الطاولة يبحث عن شيء ما، فتح الأدراج وعاد فأغلقها، ورفع الصحف والأكياس ونظر وراء ألواح الخشب، وأخيراً مد يده خلف أحد تلك الألواح، وتناول من هناك سكيناً كبيرة طويلة النصل من ذلك النوع الذي يستخدمونه لتقطيع العجين، وخطا عائداً إلى الفرن.

إلا إنه بعد خطوتين اثنتين عاد أدراجه، وأخذ ينظر إلى عبد العاطي واقفاً هناك، ما يزال جامداً. أمسكه من ذراعه بقبضته

القوية وقاده بحنان لا مثيل له إلى حيث اعتاد أن يجلس، ثم أخذ الميزان من كفه وأعطى الخبز للطفل، وقال شيئاً دون أن ينظر إلى أحد، وعاد أدراجه إلى الداخل.

وفي لحظة صغيرة تكاد لا تحس، تقاطعت الأشياء والأشخاص على صورة فريدة، فقد تداخل ذلك الجسد الفولاذي العاري، المتصبب بالعرق، وتلك السكين ذات النصل اللامع الطويل بذلك الوهم الذي خيم علي عندما شاهدت عبد العاطي واقفاً والميزان مرفوعاً أمامه على امتداد ذراعه عالياً..

هززت رأسي بعنف، وقلت لنفسي أنني رجل آخذ منذ أيام أفقد صلتي بالواقع الذي عشته حتى الامتلاء كل عمري، وأنني أغوص في عالم الأحلام والأوهـام والرؤى العجيبة، وأرى الناس والأشياء والحركات كما لم يحدث لي قط من قبل في حياتي، وأورثني هذا كله شعوراً مفاجئاً بالتعاسة، فقد تذكرت ما حدث أمس الخميس في مكتبي في مركز توزيع الإعاشة عندما كنت طوال لحظات خارجة عن عالم المعقول متأكداً من أن جموع الواقفين على البوابة سيحطمونها، وأن جدار الصمت المبني بيني وبين العالم سيتحطم في اللحظة ذاتها، وقد احتاج خروجي من ذلك الوهم جهداً يكاد لا يصدق، مثلما يقتلع الرجل جذر شجرة، وكدت

أجعل نفسي نكتة الموظفين في المكتب.

والآن، أول ما يحدث لي هذا الصباح شيء لا مثيل له، فأعيش بين عبد العاطي والولد والطفل، الخبز والميزان والسكين، حلماً جديداً يكاد يشبه كابوساً يصاب به حارس ليلي جديد لمتحف قديم.

لا شك أن شيئاً رهيباً يحدث لي، ولا ريب بوجود مخرج ما، لم أستطع إلى الآن استكشافه أو تلمسه، وكان عبد العاطي جالساً هناك، مغوصاً هو الآخر كما بدا لي، في عالمه الذي لا يعرف أحد أين يقع قراره، قلت لنفسي: أتراه يفكر بالشيء ذاته؟

قلت فجأة، دون أن أدرك بالضبط ما الذي كنت أنوي قوله :

- أتعرف يا عبد العاطي؟ يتعين عليّ أنا وكذلك أنت أن نفعل شيئاً. لا ينبغي أن نستمر كذلك، لم يعد بوسعنا أن نستمر حتى لو أردنا. يجب أن نفعل شيئاً..

وكان عبد العاطي يتجه برأسه نحوي ويستمع بكل جسده، ليس بأذنيه فحسب، وقد هز رأسه موافقاً على ما قلت، إلا إنه أشار إلى داخل الفرن إشارة لها معنى، فقلت:

- تقصد الولد؟ أنا وأنت والولد؟

هزّ رأسه، فيما مضيت أقول:

- وماذا ينفع ذلك الولد؟ إنني متأكد أنه يكرهني ويكرهك، وذات يوم سيقتلنا.

ابتسم عبد العاطي، وقال شيئاً وهو يهز رأسه منكراً ما قلته، إلا إنني لم أكن مقتنعاً بجدوى هذا الثلاثي المتنافر الذي لا يعرف أين يتعين عليه أن يذهب.

قلت:

- طيب... حتى لو كنا ثلاثة، أنا وأنت وذلك الولد، فماذا ترانا سنفعل؟

ولم أعد أحاول معرفة ما سيقوله عبد العاطي، فقد كنت متأكداً أنه يعيش مثلما أعيش، وسط تلك الغابة الكثيفة من علامات الاستفهام، فمضيت أتحدث وكأنما لنفسي:

- نستطيع مثلاً أن نذهب فنحطم قبر الولي ونخلع شجرته ونفش غلنا. نستطيع أن نذهب فنضرب مصطفى ونرغمه على الزواج من زينة. نستطيع أن نلقي خطاباً في جموع اللاجئين الذين يقفون بالصف لتسلم الإعاشة. نستطيع أن نفعل ذلك وأكثر... نستطيع أن نعود إلى الطيرة.. ألا نستطيع؟

تلك اللحظة دخل الولد مرة أخرى، قادماً من الفرن، ويبدو أنه سمع جزءاً مما كنت أقوله، فرماني بتلك النظرة القاسية التي يعطيها

جسده الحديدي العاري نبرة أشد قسوة، واتجه إلى عبد العاطي بالحديث، وقد استغرق الاثنان بالجدل فجأة حتى إنهما لم يلتفتا إلي وأنا واقف، ثم غادرت الفرن خارجاً إلى الطريق الذي كان يسبح، صامتاً، في وهج الشمس.

❖ ❖ ❖

ها أنت تغطس في عتمة الذاكرة كما تنطفئ الشمعة، أيها الولي المقدس النائم في البرية تحت شجرتك المباركة، وحين ذهبت إنما أخذت معك كل الشموع التي أضاءتها أمي في ليلي الذي قالت لي إنه سيمتد إلى الأبد، وقد حسبت أن العتمة ستزداد حلكة، ولكنها بقيت على حالها، وها أنت ذا توغل في الماضي كأنك لم تكن قط.

وطوال أيام، بعد أن قتلناك تلك الليلة في أعماق البرية، كنت انتصارنا الذي رد إلينا نبض الحياة في صدورنا، وها هي الأيام تمضي، فإذا بموتك يفقد نضارته، وإذا بنا نحسه في أيدينا انتصاراً

صغيراً يذوب ويفقد توهجه، أنت يا درع البؤساء الوهمي، ما الذي فعلته بنا؟

كنت درعنا وكنا نحسب أنك تحمينا من طعن رماح الزمن الذي نخوض في غماره ونسبح بين أنصالها، وحين اطرحناك عرفنا أننا لم نكن نخوض في غابة الزمن، وكنا واقفين على ضفته واهمين، متمسكين بذلك الدرع الذي هو أنت وكأن القتال في أوجه... الآن نحن بلا درع، ولكننا نخوض في شوك الزمن وفي ناره وفي أمديته، بصدور مشرعة عارية تطعم لحمها لذلك الارتطام المخيف مع المجهول.

فأعطنا يا عبد العاطي، أيها الولي النائم تحت بلاطة النسيان، في البرية التي تعوي فيها الغربة، القدرة على أن نكرهك، فقد تيقنا أن موتك لا يكفي، وأنه انتصار يذوب مع الأيام ولا نستطيع أن نعتاش على مذاقه الذي كان له، ذات ليلة، طعم القضاء والقدر.

فأعطنا، أيها الولي الذي صرفت من أعمارنا عمراً إضافياً لك، القدرة على أن نكرهك بكل وشيجة من وشائج قلوبنا، فليس أمامنا، بعد، إلا أن نحييك بالكراهية، كي نقتلك مرة أخرى. فكما صرفت أنت من أعمارنا كي تعيش، لا نستطيع إلا أن نصرف من موتك، كي نمحوك تماماً من حياتنا، ثم نرتقي فوقك.

❖ ❖ ❖

كان يوماً مترعاً بالضجر حتى قرارته، لكأن الناس كفوا عن شراء الخبز لسبب غامض لا يفهم، وكنت جالساً هناك على باب الفرن، غارقاً في تأملاتي، حينما جاء حمدان يلهث من الداخل، وكانت رائحة العرق تفوح من صدره العاري وتملأ المكان، وقد عرفت أنه أراد الكلام، فتلك هي عادته حين يعتزم مفاتحتي بأمر يشغل باله، وكنت أحسب أنه يريد إنهاء ذلك الخلاف، بيني وبينه، حول منزلة الولي عبد العاطي، إذ إنني لم أكن أعرف أن هناك ما يشغل باله في هذه الأيام أكثر من هذا الموضوع، إلا إن ظني خاب تماماً. فقد تنهد، ثم قذف جملته دفعة واحدة مثلما يرمي المرء صندوقاً ثقيلاً عن ظهره:

- لقد عاد والدي.

وأخذت بهدوء امتص الصدمة حين لطمتني هذه العبارة القصيرة دون توقع مني، ورغم أنني كنت طوال السنوات الماضية

على يقين من أن أبا حمدان، الذي لم أعرفه قط إلا من خلال أحاديث قصيرة متقطعة مع حمدان، لا بد له أن يعود يوماً، إلا إنني أبداً لم أتصور ذلك يحدث على هذه الصورة، بل إنني لم أتصوره يحدث على أية صورة، فقد كنت أتوقع حدوثه، ليس غير.

وعاد حمدان يكرر عبارته، بعد أن تصور أنني لم أسمعها:

- لقد عاد والدي. أطلقوا سراحه أمس.

ولا ريب أن حمدان لاحظ كيف انتفضت، إذ إنه لم يقل لي قط أن والده كان محبوساً، وبدا لي لوهلة أن هذا الفتي الذي عشت معه عشر سنوات كاملة احتفظ لنفسه طوال تلك السنوات بحياته الخاصة، ولم يسمح لي بالتعرف إلا على أجزاء يسيرة منها، إلا إنني حاولت أن أبدو طبيعياً، وقلت له:

- هل انتهت مدة حبسه؟

- لا. كان محكوماً بالحبس المؤبد. دخل السجن قبل نحو ١٢ سنة، وكان عمري سبع سنين، أو ربما ثماني.. لقد أخذوا منذ شهور قليلة يطلقون المحابيس الذين مثله، وأنت تعرف لماذا، الحرب والهزيمة والفدائيون... أنت تعرف..

- وما علاقة والدك بالحرب والهزيمة والفدائيين؟

- كان فدائياً...

- كان ماذا؟

- كان فدائياً...

- منذ ١٢ سنة؟

- نعم دربوه في سوريا، ونزل إلى هناك عدة مرات...

- ولماذا حكموه بالحبس المؤبد؟

- أطلق الرصاص على خمسة من العسكر، فجرحهم وسلّم نفسه...

- عسكر ماذا؟

- عسكر في الأردن. كان ذاهباً مع شخصين إلى الداخل فأطلقوا عليهم الرصاص. مات واحد، ووالدي أخذ يطلق النار على العسكر.. هذا غير مهم الآن.

أخذت نفساً عميقاً وتنهدت، ولأول مرة في حياتي شعرت أنني راغب حتى أعماقي في التعرف على وجه حمدان ورؤية تعابيره وهو يروي ذلك كله، إذ إن صوته كان محايداً كأنه يتحدث عن كمية الطحين التي يتوجب علينا أن نعجنها اليوم.

وامتد صمت قصير بيننا إلا إن حمدان قطعه فجأة:

- كان من الأفضل لو ظللت صامتاً. لا يجوز أن أتحدث لأحد عن ذلك كله، كان عليك أن تطلب مني السكوت.

ومع ذلك فقد كان منساقاً إلى الحديث كأنما بقوة لا يستطيع إيقافها، وقد تردد لبرهة قصيرة فقط، ثم مضى يقول:

- لو رأيته في المحاكمة! كنت مع أمي، وقد حكمه القاضي بالحبس المؤبد، فنظر تواً من داخل القفص إلى أمي ومد نحوها ذراعه وصاح: «روحي طالقة بالثلاثة، طالقة، طالقة»، ثم أدار ظهره دون أن ينظر إلي، وخرج من القفص بين الحراس.

وصمت قليلاً ثم تنهد:

- وها هو يعود.... أطلقوا سراحه أمس. لو كانت أمي تعرف أن ذلك سيحدث لما كانت...

وصمت فجأة، وبدا لي أنه لم يتكلم قط بعد هذه اللحظة، ومع ذلك فقد ظللت محتاراً في سبب مفاتحته لي بالأمر كله، أتراه ينوي ترك العمل في الفرن؟ أم تراه يستكشف الطريقة التي يتعين عليه أن يعامل بها هذه الحقيقة الجديدة في حياته؟ لا ريب أنه محتار حتى قرارة أحاسيسه، فلم يحدث له قط في حياته أن واجه حالة على هذا المستوى من الخطورة، إلا ربما عندما قر قراره ذات يوم على الفرار إلى الأبد من بيت أمه وزوجها..

وعندما طال سكوته، سألته :

- وما الذي ستفعله الآن؟

- أنا؟ أنا؟ لا شيء؟ ماذا تغير؟ حسبت أنك تسأل عما سيفعله هو..

- صحيح. هو. ما الذي سيفعله يا ترى؟

- لست أدري. هذا ما يحيرني..

- كم عمره الآن؟

- ٣٨ أو ٤٠ سنة، وأعتقد أنه ما زال قوياً، ولكنني لا أعرف شيئاً عنه، بل إنني لا أعرف إلى أين ذهب.

وخيم الصمت أعمق غوراً هذه المرة، ووقف حمدان، ثم سمعت خطواته تدب إلى الداخل. وما لبثت أن سمعت أصوات أرغفة العجين وهي تصطفق على أرض بيت النار فتصدر ذلك الصوت الحميم الذي يشبه تصفيقاً خجولاً لطفل يختبئ وراء ظهرك.

كان حمدان، طوال السنوات التي عرفته فيها، يميل إلى اعتبار والده ميتاً، فقد حذفه من حياته بنجاح أو شبه نجاح، وقد اعتقدت دائماً أن السنتين اللتين أمضاهما مع أمه المتزوجة من ذلك الرجل الفظ هما اللتان شكلتا أساس هذه العادة، ففي بيت من ذلك النوع لابد أن يرغم الطفل على نسيان والده وعلى حذفه من وجوده، ومع ذلك فقد كان من السهل أن يكتشف المرء بأن حمدان يحتفظ لوالده بمكانة خاصة في ذاكرته، ولكن كرجل ميت ليس أكثر، مثلما

يتحدث حفيد عن كنز دفنه جده في مكان مجهول، ولا أمل له بالعثور عليه، فلم يبق أمامه إلا الاعتزاز بذكراه.

ولست أدري بالطبع كيف بنى حمدان لنفسه صورة ذلك الأب الغائب، الذي تبدت لي حياته الآن عاصفة ومثيرة وأيضاً محزنة ومغلوبة على أمرها. ولست أعرف شيئاً عن سعة تلك الهوة بين والد حمدان كما هو، وبينه كما هو في رأس حمدان، ومهما يكن الأمر فقد كنت على يقين بأن حمدان أخذ منذ الآن يقف على عتبة حياة جديدة، وأنني قد أفقده في أية لحظة.

◆ ◆ ◆

مضت أسابيع منذ ذلك اليوم الذي استطاع فيه عبد العاطي، بالإشارات والكتابة وكل أنواع الاتصال التي اخترعها البشر، ما عدا السمع والبصر، أن يشرح لي كيف ظهر والد الولد حمدان إلى الوجود فجأة، قادماً من مكان يشبه عالم الموت.

وكان الولد حمدان نفسه قد استغرق في تأمل يكاد لا ينتهي،

ولكنه لم يعد يكترث، مثلما كان من قبل، بما يدور حوله، ومع ذلك فلم يقدر لي، ولا لعبد العاطي، أن نرى والد الولد حمدان ولو مرة واحدة، ولم يكن بوسعنا أن نعرف فيما إذا كان الولد حمدان نفسه يرى والده، وأين ومتى.

وفي لحظات عابرة كان يخيل إلي أن الولد حمدان اخترع قصة مثيرة من قلب رأسه الصغير ليشغلنا بها، أو يشغل نفسه فيها، على أنني لم أكن على يقين من ذلك، فقد كنت أشك أساساً في قدرة الولد حمدان على اختراع شيء من هذا النوع.

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الولد حمدان أن ينسينا، ولو إلى حين، قصتنا مع الولي عبد العاطي، وكان يمكن له أن يجرنا بعيداً عما كنا غارقين فيه، لولا أنني وجدت نفسي أنا الآخر أعيش مشكلة غير متوقعة فاجأتني في المكتب..

فقد لاحظنا كلنا كيف أخذ مصطفى يتغيب عن المكتب بين الفينة والأخرى، ثم امتد غيابه في إحدى المرات أسبوعاً كاملاً. وحين عاد في الأسبوع الماضي كان يلبس بذلة خاكية، وقد جعلنا - كأنما دون قصد - نرى المسدس الكبير الذي كان يدسه تحت حزامه.

وفي أثناء غيابه كانت الشائعات قد اكتسحت المكتب، وقيل لي إن مصطفى أصبح فدائياً، وهو يختفي بين الفينة والأخرى في

مكان ما ليتدرب على استخدام مختلف الأسلحة، وأنه قد تسلّم قيادة مجموعة من الفدائيين الشبان الذين التحقوا قبل فترة وجيزة بالثورة الآخذة في الصعود.

كان مصطفى أول من فعل ذلك من بين جميع الموظفين الذين أعرفهم في الدائرة التي أعمل فيها، وفي الدوائر الأخرى التي أزورها بين الفينة والأخرى، وقد أكسبه ذلك العمل، على التو، نفوذاً جديداً في المكتب، وصار - دون اتفاق مسبق من أحد - يلعب دور الرئيس.

على أن مصطفى نفسه ما لبث بعد أقل من ثلاثة أيام أن استغنى عن جميع الاحتياطات المصطنعة التي كان يتخذها، وصار يتمنطق بالمسدس فوق قميصه الخاكي، ووضع على صدره شعاراً نحاسياً لامعاً وعلّق وراءه، على الجدار، خارطة مضرّجة بالدم، ومعنونة بأبيات من الشعر الوطني.

وأمس جاء مصطفى إلى طاولتي، وأخذ يتحدث بصوت غاضب، وكان من الواضح أنه يجعله عالياً قدر الإمكان متوقعاً مني أن أسمع، إلا إنني لم أفهم شيئاً، وقد هدأت من فورته بحركة متصلة من كفي ثم قلت:

- لا أسمع شيئاً.. لا أسمع شيئاً، فلا تتعب نفسك..

وصمت قليلاً، ثم احتقن وجهه بالغضب من جديد، وأخذ مرة

أخرى يصرخ بملء صوته، وأخيراً انحنى، وكتب على ورقة أمامي:

- ماذا فعلت من أجل وطنك؟

ونظرت إليه مندهشاً، ولكنني لم أستطع أن أجيب لتوي على ذلك السؤال المفاجئ، وقد شعرت - خصوصاً - أنه سؤال مهين، إذ جاء على لسان مصطفى، وقد انتهز هو فرصة حيرتي وتردّدي فالتفت إلى بقية الموظفين الذين كانوا يراقبوننا صامتين، وأشار إشارة جانبية نحوي، وأخذ يتحدث إليهم ضارباً بجمع قبضته، بين لحظة وأخرى، على الطاولة، ملوحاً بذراعيه، متقدماً خطوة إلى الأمام متراجعاً إلى الوراء بحركات شبه مسرحية، وكان من الواضح، وأنا أراقب عروق رقبته، أن صوته آخذ بالعلو درجة وراء درجة..

وفجأة تذكرت ذاك الحلم الذي عشته فترة من الزمن، وقلت لنفسي: ها هو ذا مصطفى يأخذ مكاني! فأخذت أبتسم، إلا إنه رآني، فتقدم نحوي والشرر يتطاير بين أسنانه، وأمسك بياقتي بكلتا يديه وأخذ يهزني بضراوة وهو يقول شيئاً، هو أغلب الظن شتيمة واحدة مضى يكررها مرة تلو المرة.

منذ زمن طويل لم أستخدم عضلاتي التي كانت ذات يوم قوية، وقد انتابتني في تلك اللحظة قشعريرة من الغضب لم أشعر بمثلها في حياتي. أمسكت زنديه بقبضتي وأخذت أضغط بكل الغضب

الذي كان يستعر في صدري - وقد رأيت في عينيه انحناءة الضعف، وحين فك أصابعه عن ياقتي ظللت ممسكاً بزنديه، وكان يقاوم جاهداً، إلا إنني ضغطتهما إلى أدنى ببطء، حتى أوصلتهما إلى سطح الطاولة، فضربتهما هناك مرتين، ثم تركتهما وجلست.

وظل مصطفى برهة ينظر إلي مشدوهاً، دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة. الله الله يا طيرة حيفا! هكذا تصبح قبضات الأيدي من فرط ما تعاملت مع الأرض والوعر و الشتل! الله الله يا طيرة العز! حتى عندما كنت طفلاً صغيراً كنت أرى في الحقول المكان الوحيد الذي يصح فيه الكلام. كنت أمضي النهار وأنا أدق بالمنكوش ذاك التراب الذي سرعان ما ينشف من جديد، أحمل الحجارة، أستل النبات الضار من جذوره الضاربة في عمق التراب. .. الله الله يا طيرة العز! كنت معروفاً هناك - وأنا ما أزال فتى - بأن القوة الكامنة في زنديّ هي من الضخامة بحيث لا يقوى أحد على تحديها، ولطالما انتظرت أمام الجامع في الطيرة حتى يفرغ الشبان من اختيار بطلهم حتى أثني له ذراعه على بلاطة درج المسجد، ولم يكن ذلك ليستغرق مني إلا دقيقة أو دقيقتين. .. كم مضى من الزمن دون أن اختبر تلك القوة؟ أتراها ما تزال مختزنة في جسدي، أم أن مصطفى بالذات رجل خرع؟

عدت، فوقفت ولوحت بأصابعي في وجه مصطفى الذي كان ما يزال واقفاً هناك يحدق إلي مشدوهاً، وصحت بوجهه :

- اسمع يا ضرُنط! سأكسر يدك إن حاولت مرة أخرى أن تمدها نحوي. . تستطيع أن تذهب وتتشاطر على الأرامل والمطلقات. .. أم تراك تحسب أن البدلة صيرتك رجلاً يا حرام الشوم!

وأخذت شفتاه تتحركان ببطء، إلا إن وجهه ظل جامداً كأن رجلاً آخر كان يتكلم في تلك اللحظة. ولم أستطع حتى أن أخمن ما الذي كان يقوله لي، وما لبث أن استدار، بعد أن انتهى، وخرج من المكتب صافقاً الباب خلفه بعنف..

وقد هدأ الغضب في صدري مثلما تنطفئ نار مهملة، وظللت جالساً إلى مكتبي مضطرباً طيلة ساعات الدوام، فقد كنت أحس في أعماقي بأن مصطفى يعد لي فخاً، وأنه قد يعود في أي لحظة ويفاجئني بأمر لا أحسب حسابه، وتوزعتني مشاعر متناقضة. ومع ذلك، فقد كنت أدرك وسط كل حيرتي أنه يتعين عليّ الذهاب إلى عبد العاطي، فقد أحتاج للولد حمدان، أو لعلني أحتاج إلى والده المجهول الغامض.. ولكنني لم أكن أعرف على وجه التحديد ما الذي يستطيعون عمله، وقد انتظرت بلهفة انتهاء الدوام، ومضيت لتوى إلى عبد العاطي..

وقد شرحت لعبد العاطي ما حدث، وكان حمدان واقفاً على باب الفرن يستمع بعناية إلى كل كلمة أقولها، ولست أدري لماذا كنت أخشى، أكثر ما أخشاه، أن يؤلب مصطفى ضدي كثيراً من الناس، وكذلك الشرطة، بسبب حديثي المتواصل عن الولي عبد العاطي، وعن تكرار التصريح بعزمي على هدم قبره وقطع شجرته، ولعلي قلت، مرة، أنني سأبول هناك. والواقع إن إصراري على الحديث عن الولي عبد العاطي على تلك الصورة كان سببه الأولي إصرار مصطفى على الدفاع عنه، فقد كنت عازماً على الانتقام منه وإغاظته وقلب حياته في المكتب إلى جحيم..

ومع ذلك فإنني لم أصرح لعبد العاطي بمخاوفي هذه، رغم أنها تمسه مباشرة، ولعلني كنت خائفاً من أن أثير غضب حمدان، الذي كان ينصت إلى حديثي بانتباه فائق، وكنت أخشى أن يأخذ جانب مصطفى فأفقد تأييده لي.

ولكن ما إن انتهيت من شرح حكايتي مع مصطفى، وعبرت عن مخاوفي من انتقامه وطلبت نصح عبد العاطي، حتى انغمس حمدان مع عبد العاطي في جدال مطول، وقد انتهى الأمر بأن طلبا مني التريث، وأن أترقب بحذر خطوة مصطفى التالية.

وقبل أن أذهب لحق حمدان بي، وقد رأيته لأول مرة في حياتي

يبتسم، وقد شرح لي بالإشارات أنه سيخبر والده بكل ما حدث، مؤكداً لي أن والده له مكانته المهمة، حتى الآن، بين قادة الفدائيين.

◆ ◆ ◆

عاد حمدان من عند أبيه، وشعرت من خطواته وهو يدخل إلى الفرن أنه يحمل على أكتافه خيبة أمل، وقد جلس على الكرسي الذي نضعه عادة قرب الباب، واستغرق في الصمت منتظراً مني أن أحرضه على الكلام، مثل عادته كلما كان يحمل خبراً سيئاً..

وقد تركته صامتاً لفترة طويلة، وأنا أفكر فيما عساه سمع من والده الغامض بشأن القضية التي تقلق أبا قيس، وأخذت أتصور ما يمكن أن تكون اثنتا عشرة سنة من الحبس قد فعلت برجل مثل أبي حمدان، لعله قد غرق في النسيان، ولعله حين قطع أواصره بالعالم، وهم يقتادونه إلى ما حسب انه قبره طوال العمر، فطلق امرأته، ونسي ولده، وغرق في وحدته المضجرة، إنما عود نفسه على أن يحتقر العالم، وليس بوسعك أن تفعل ذلك إلا إذا روضت نفسك على اليأس منه إلى حد القطيعة معه، وهي الحيلة التي يلجأ إليها

السجناء كي لا يموتوا من الحزن في وحشتهم وبعدهم عن العالم..

فكيف تراه ينظر إلى هذا العالم، وإلى الناس، وإلى كل المعاني البسيطة التي تشغلنا وتشغل رجلاً مثل أبي قيس؟ أتراه يستطيع أن يخرب حمدان أو يزرع في شبابه غيوم اليأس من هذا العالم؟

قلت أخيراً كي أخفف على حمدان:

- لا ريب أن أباك يسخر من كل شيء، وهو يرى أن قضية أبي قيس لا تستحق كل ذلك. .. بشرفك، ألم يضحك عليك؟

وبعد هنيهة جاءت الدهشة التي توقعتها، في صوت حمدان:

- كيف عرفت؟ قل لي كيف عرفت؟

- ذلك شيء متوقع..

- ربما، ولكنك لا تعرف! لقد تغير والدي كثيراً، كثيراً جداً. السجن غيره، وهو ليس كما كنت أتوقع...

- ماذا تعني؟

وأخذ حمدان يتأتئ ، متردداً، فعرفت أنه لا يستطيع التعبير على وجه الدقة عما حدث، فتركته يفكر، وقد اختار جملة أو جملتين، على أنه عاد فتوقف في منتصف كل منهما والتجأ إلى الصمت. وأخيراً قذف عبارة مختصرة دفعة واحدة وكأنه كان يخاف أن يغير رأيه:

- لقد تعلم السياسة في الحبس.

وخيم صمت طويل بعض الشيء، ميزت فيه ذلك النوع من السكون الذي اعتدت أن ينشأ بيني وبين أبي قيس. ذلك الصمت الذي يدوي فيه صوت الانتظار، وكان هذا النوع من الصمت نادر الحدوث بيني وبين حمدان، وأخيراً عاد حمدان إلى الحديث:

- إنه طوال الوقت يتحدث عن رجل كان سجيناً معه، تارة يقول إنه رفيق، وتارة يقول إنه مناضل. وكل شيء له معنى عنده، ويستجر حديثاً طويلاً، وحين شرحت له ما حدث بين مصطفى وبين أبي قيس ضحك وقال إن مصطفى من «جماعة الطق الطق»..

- «جماعة الطق الطق»؟

- أي نعم. قال «جماعة الطق الطق»، أو أولئك الذين يختارون من بين كل المتاعب بند «الطق طق».

- ماذا يعني بـ«الطق طق»؟

- يعني القواص. يقول إن إطلاق الرصاص نوعان، نوع يسميه «الطق طق»، ونوع يسميه السياسة.. وهو يقول إن مصطفى من «جماعة الطق طق».

- لم أفهم شيئاً..

- وأنا لم أفهم، والظاهر أنني أخطأت حين قلت له إنك أنت

الذي تستطيع أن تفهم عليه، وذات يوم لا بدّ أن أحضره إلى هنا كي تثرثرا حتى تنفلقا. إنكما تشبهان بعضكما من حيث أنكما تقولان أموراً كثيرة لا معنى لها..

وقام حمدان من مكانه وأخذ يتجه إلى الداخل، وعندما مر بجواري أمسكت بزنده القوي فوقف، وسألته:

- مهما يكن. .. ماذا بشأن أبو قيس؟

وأجاب حمدان:

- قال أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وأن على أبو قيس أن يقلع شوكه بيده...

وفيما كنت أسمع خطواته تدب نحو الفرن كان رنين الاعتزاز الكامن في صوته ما زال يرن في رأسي، ولم يكن من الصعب على المرء أن يسمع، تحت نبرة الحيرة التي كانت تكسو صوته، رنة عميقة من الافتخار بوالده، إنه يتحدث عنه، وعما قاله، وكأنه تعاليم ينبغي علينا التعمق في حل رموزها وإشكالاتها، ولكن لا ينبغي لنا الشك بصوابها مهما كان الأمر.

وقلت لنفسي إن الأقدار تلعب ببراعة، إذا ما حاولنا أن نفهم، فهائنذا أضيع نبياً حين أخفق الولي عبد العاطي في نجدتي، وها هو حمدان يجد ولياً جديداً، ولكنه ولي محير، ومع ذلك فليست

عذاباتنا تختلف كثيراً عن بعضها..

ويبدو أن حمدان لم يستطع البقاء طويلاً أمام بيت النار مع أفكاره، إذ ما لبث أن عاد، وقد جاءت رائحة العرق التي تنبعث من جسده، كلما وقف أمام النار، قبل أن تجيء أصوات خطواته. ووقف أمامي وسألني:

- أتعتقد أن السجن أثر على والدي؟ أم أنه كان طوال عمره هكذا؟ لقد قال لي هو نفسه أنه تعلم كثيراً من السجن، وأن الحظ قد ساق له ذلك الذي يسميه تارة رفيقاً وتارة أخرى مناضلاً، فتعلم منه الشيء الكثير. وقد سألني عما أفعل، وحين قلت له أنني أعمل هنا لم يقل شيئاً، بل أخذ ينظر إليّ بدهشة..

- هل يعمل الآن مع الفدائيين؟

- أعتقد ذلك، ولكنه يقول إن ما تعلمه في السجن يجعله يعتقد بأن «جماعة الطق طق» بحاجة إلى تعلّم الكثير، وأنه هو نفسه كان من جماعة الـ«طق طق» قبل ١٢ سنة، أما الآن...

وخيم صمت قصير، وفجأة غير حمدان الموضوع، ولكن دون أن يبدو ذلك التغير في نبرة صوته:

- لقد تحدثنا عدة مرات عن الولي عبد العاطي..“

- ماذا؟

- رويت له قصتكما معه، ومعي، وسألته رأيه، أنت تعرف، أردت أن أتيقن من هذه القضية. فهي تشغلني منذ فترة..

- طيب، ماذا قال؟

- لقد ضحك كثيراً، ثم قال إن الأولياء مثل الأفاعي التي في قصة الزير، إذا قطعت لها رأساً طلعت مكانه سبعة رؤوس... ثم شتمني، وقال إنني «وليّة». وقال إنه ياما هدم الناس قبور للأولياء، وياما كفروا، وياما حلفوا بالطلاق ألا يسمحوا لأحد بأن يخدعهم مرة أخرى، ولكنه قال إن هذا ليس هو المهم، المهم أنك إذا هدمت قبر الولي فعليك أن تقلعه من شروشه، وألا تسمح لولي آخر بأن يأتي من وراء ظهرك.. إنه طول الوقت يحكي هكذا، تقول له: كيت وكيت يقول لك، طيب، ولكن شرط كذا وكذا. كل شيء عنده له أول ووسط وأخير، ودائماً يقول إن الأمور غير هذا، وإن المسائل أعمق من هكذا... وهكذا... ولكنني لا أفهم كل شيء، وأظل أهز رأسي...

- أنا أعتقد أنني أفهم بعض الشيء أيضاً..

- أنت مثله. أنتما تتحدثان أكثر من قاضٍ معزول، وأنا أعتقد أنه لم يشعر بالملل في السجن، فقد أمضى الوقت، طوال ١٢ سنة يتحدث مع ذلك الرجل الآخر بالسياسة... على كل حال، فقد رأيت أنه يحتفظ تحت فرشته بمدفع رشاش. هل تعرف معنى هذا؟

معناه أن الحبس لم يغيره، أليس كذلك؟



دخل أبو حمدان إلى حياتنا عن بعد، ولكنني لم أره قط، ولا استطاع عبد العاطي أن يراه، وكنا نسمعه من خلال الولد حمدان، ونراه من خلال التغير الثابت الذي يطرأ على هذا الفتى يوماً بعد يوم، وكان عبد العاطي يستمع إلى الولد حمدان وهو ينقل تفاصيل مقطعة عن الكلام الذي كان يتبادله مع أبيه، ومن ثم كان يشركني بالحصيلة عبر أساليب مختلفة كنا، دون أن ندري، نطورها نحن الثلاثة معاً من خلال احتكاكنا المتواصل، ومن خلال المواضيع التي كنا نرى أنفسنا نبحثها في كل يوم.

ولم يعد مصطفى يخيفني، وفي الحقيقة أنه لم يخفني قط قبل ذلك، إلا إنه كان يثير فيّ خشية بالنسبة للمستقبل، ومع مضي الأيام أخذت أنا، وأخذ بعض الموظفين، يدركون بأن الحدود التي يستطيع أن يصلها في نشاطه ليست بعيدة إلى الحد الذي اعتقدناه

في البدء، وأن مسار يومياته قد مضى على الأسلوب نفسه الذي كان لها منذ أن عرفناه، لعدة سنوات خلت، إلا إن زيادات طفيفة - مثل ملح الطعام أو بهاراته - قد طرأت هنا وهناك على نشاطه اليومي.

وقد كانت حياتنا تسير بشيء يشبه الهدوء، لولا ذلك الطعم الجديد الذي أدخله حمدان إليها، بطريقته المفعمة بالتحير، إلى أن حدث ذات يوم حادث بدا لي صغيراً في لحظتها، ولكنه لم يكن كذلك كما تيقنت فيما بعد، فقد كنت في مكتبي في الوكالة حين أحسست بأن شخصاً ما يقف قرب طاولتي، وحين رفعت بصري وجدت زينة واقفة هناك وهي تحمل أحد أطفالها على خاصرتها، وقد بدت لي أقل جمالاً مما تصورت، ولا شك أن الحزن قد أنهكها، وكانت تتحدث إلي والدموع تملأ عينيها، إلا إنني لم أكن أفهم شيئاً..

وفجأة اصطدم بصري بمصطفى الذي كان جالساً وراء طاولته، قبالتي يسترق النظر دون أن يتحرك، فأشرت لها أن تذهب إليه، ولكنها دون أن تنظر إلى حيث أشرت أخذت تهز رأسها رافضة وهي تصرخ، وشرع طفلها يبكي ويتمسك بها، ودون توقع مني بدأت دموعها تنهمر وكأن أبواباً موصدة أمام عينيها قد فتحت فجأة على مصاريعها.

وربما لن أعرف، طوال عمري، ما الذي كانت تقوله تلك اللحظة،

وأشعر في كل لحظة بندم شديد، ولا أدري لمن يتعين عليّ أن أوجه وخزاته، إذ لست أعرف من الذي ينبغي أن يلام، ولقد استدارت وخرجت من المكتب وأنا أنظر إلى كتفيها يهتزان من تأثير النشيج الذي كانت غارقة فيه، وكان رأس طفلها المعلق على خاصرتها يهتز هو الآخر بتناغم محزن، وفي تلك اللحظة نظرت نحو مصطفى، وأعتقد أنني شهدت، للحظة أقل من ثانية، بقايا ابتسامة خبت بسرعة حين شاهدني أنظر إليه، وعندها فقط مر في رأسي قرار صغير بأن أنهض وأتجه نحو مصطفى وأستل عمره من عروق رقبته، ولكنني هدأت بسرعة، وتنهدت، وعدت إلى أوراقي.

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

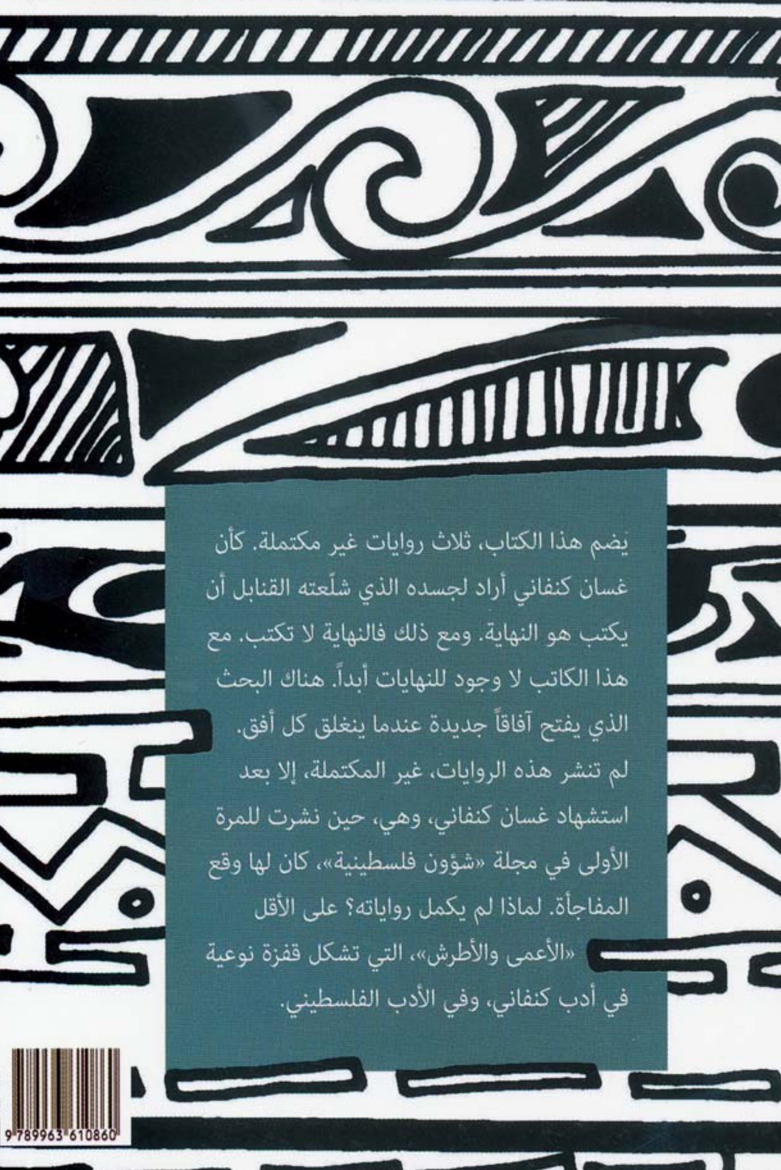
جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني



يضم هذا الكتاب، ثلاث روايات غير مكتملة. كأن غسان كنفاني أراد لجسده الذي شلّعته القنابل أن يكتب هو النهاية. ومع ذلك فالنهاية لا تكتب. مع هذا الكاتب لا وجود للنهايات أبداً. هناك البحث الذي يفتح آفاقاً جديدة عندما ينغلق كل أفق.
لم تنشر هذه الروايات، غير المكتملة، إلا بعد استشهاد غسان كنفاني، وهي، حين نشرت للمرة الأولى في مجلة «شؤون فلسطينية»، كان لها وقع المفاجأة. لماذا لم يكمل رواياته؟ على الأقل «الأعمى والأطرش»، التي تشكل قفزة نوعية في أدب كنفاني، وفي الأدب الفلسطيني.

9 789963 610860